منهج القرآن الكريم
في محاربة الشرك

إعداد

د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي

الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه في جامعة القصيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، وقد تمت مناقشتها بتاريخ ٢/٢٢/ ١٤١٩ هـ، وأجيزت بتقدير ممتاز.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فيسر **الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان)** أن تقدم للعلم وأهله وطلابه الإصدار (٣٠) من سلسلة إصدارتنا من الرسائل العلمية في الدراسات القرآنية ؛ مشاركة في دعم حركة البحث العلمي ونشر المتميز من جهود الباحثين .

والرسالة التي بين أيدينا (**منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك**) لفضيلة الشيخ الدكتور: إبراهيم بن صالح الحميضي - الأستاذ المشارك بقسم القرآن وعلومه بجامعة القصيم .

وهي تعالج موضوعاً غاية في الأهمية ؛ إذ القرآن الكريم إنما جاء لتقرير التوحيد ، وبيان التوحيد وفضله والدعوة إليه وإيضاح عاقبة أهله ، والتحذير من ضده (الشرك) والتنفير منه وبيان عقوبة أهله وعاقبتهم في الدنيا والآخرة .

وحريٌ بالباحثين والبحوث أن توجه لهذه الموضوعات التي عظمت عناية القرآن بها ، وكثر ذكرها فيه ؛ إذ ذلك دليل أهميتها وبرهان الحاجة إلى علمها وفهمها والعمل بها وتحقيقها والدعوة إليها .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الإصدار ، وأن يجزي أخانا الدكتور / إبراهيم الحميضي خير الجزاء ، وأن يجزل الأجر لإخواننا المشايخ الأفاضل في اللجنة العلمية على جهودهم المباركة إنه سميع مجيب .

وصل الله وسلم على نبيا محمد وآله وصحبه أجمعين .

رئيس مجلس إدارة

الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه

أ.د محمد بن سريع بن عبدالله السريع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن من أعظم النعم التي امتن الله – تعالى – بها على هذه الأمة إنزالَهُ هذا الكتابَ العظيم الذي جعله موعظةً وشفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

وقد بيّن الله – تعالى – في كتابه الكريم كلَّ ما يحتاجه البشر في أمور معاشهم ومعادهم، وأوضح لهم فيه أسباب سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

هذا وإن المتأمل في آيات هذا الكتاب الحكيم يجد فيها الاهتمام البالغ، والعناية الكبيرة بأمر الشرك؛ حيث ساق الأدلة الكثيرة والبراهين المتنوعة لبيان بطلانه، وأورد الأساليب المختلفة في سياق محاربته، وسلك المناهج المتعددة في مخاطبة أهله ومجادلتهم، وما ذاك إلا لشناعته وبشاعته، وخطره العظيم على الأفراد والجماعات، ولا غروَ في ذلك فما أرسلت الرسل، ولا أنزلت الكتب، ولا جرِّدت سيوف الجهاد إلا لتوحيد الله – تعالى – بالعبادة واجتناب الشرك، كما قال – تعالى –: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال – تعالى –: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومع هذه الأهمية الكبيرة للتوحيد وقع فيه الخللُ والنقص، وتهاون به الكثير من الناس، فوقعوا في كثير من مظاهر الشرك، وتساهلوا فيها، مع ادِّعائهم التوحيد وبراءتهم من الشرك، ونفورهم من الانتساب إليه، هذا معَ أنهم يقرؤون القرآن، ويزعمون أنهم يمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، وذلك لجهلهم أو تقصيرهم في معرفة الحق.

ولذلك اخترت البحث في هذا الموضوع، وجعلت عنوانه (منهج القرآن الكريم في محاربة الشرك) لأسباب عديدة، منها:

١- أهميةُ الموضوع وحاجة الناس الماسة إليه، فقد انتشر الشرك في كثير من البلاد الإسلامية، وبصور متعددة وأشكال خفيَّة ومختلفة[١].

٢- عدمُ اطلاعي على كتاب ضم أطراف الموضوع، وعالجه من خلال القرآن الكريم، وكشف عن الهدايات والمقاصد القرآنية فيه.

٣- عِنَاية القرآن الكبيرة بهذا الموضوع، حيث لا تكاد تخلو سورة من سوره المكية والمدنية من الحديث عن الشرك والمشركين، وبأساليب مختلفة وطرق متنوعة، بل إن القرآن كلَّه تقرير للتوحيد، ونهي عن ضده، وهو الشرك، ومما يدل على ذلك أن مادة (شَرَكَ) وردت في القرآن قرابة ثمانين ومائة مرة، فضلاً عمَّا جاء بمعناها بألفاظ أخرى.

٤- عِنَاية علماء الكلام ببيان عقائد الإسلام، وسلوكهم في التدليل عليها سبيل المنطق اليوناني، ثم جمود بعض المتأخرين على هذا الأسلوب، وغفلتهم عن

---

(١) وفي العصر الحاضر هناك عودة في الأمة إلى التوحيد الخالص ولله والحمد، ولكن الحاجة ماسَّة إلى تضافر الجهود لنشر التوحيد والسنة، ومحاربة مظاهر الشرك والبدعة بكافة الوسائل المتاحة.

بيان القرآن، ولذلك خَفي على الناس ما هو شركٌ أو سبب إليه [١].

٥- عِنَاية كثير من المتأخرين بتوحيد الربوبية، وتقريره بأدلة متنوعة، وحديثهم عن آيات الربوبية الكونية منها والشرعية، وإهمالُهم توحيد الألوهية وما يضادَّه أو ينافي كماله، وهو الشرك، مع أن عناية القرآن به أكبر، واهتمامه به أشد.

٦- عِنَاية كثير ممن كتب في التفسير الموضوعي بالموضوعات السلوكية والأخلاقية، ولذلك أحببت أن أطرق أحدَ الموضوعات العَقَدِية من خلال هذا اللون من ألون التفسير، وذلك لأن اهتمام القرآن الكريم بموضوعات العقيدة أكبرُ من اهتمامه بموضوعات السلوك والأخلاق.

(١) انظر الشرك ومظاهره، للميلي ص(٢١).

خطة البحث:

هذا الموضوع يشمل مقدمة وتمهيداً وثلاثة أبواب وخاتمة، وهي على النحو التالي:

المقدمة، و تشتمل على ما يلي:

١- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٢- خطة البحث.

٣- منهج البحث.

والتمهيد: يشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تعريف الشرك.

المبحث الثاني: مراتب الشرك.

الباب الأول: أسباب الشرك ومظاهره في ضوء القرآن الكريم، وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الشرك في ضوء القرآن الكريم، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الإعجاب والتعظيم والغلو في المخلوقين.

المبحث الثاني: التقليد.

المبحث الثالث: اتباع الهوى.

المبحث الرابع: الكِبر.

المبحث الخامس: الجهل بالله - تعالى - وأسمائه وصفاته.

المبحث السادس: إهمال العقل، وعدم التفكر في آيات الله -تعالى-.

الفصل الثاني: مظاهر الشرك الواردة في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر الشرك الاعتقادية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مطالب:

المطلب الأول: شرك المحبة.

المطلب الثاني: شرك الخوف.

المطلب الثالث: شرك التوكل.

المطلب الرابع: الرياء.

المطلب الخامس: إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

المطلب السادس: الطِّيَرة.

المطلب السابع: التبرك.

المبحث الثاني: مظاهر الشرك العملية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: شرك الطاعة.

المطلب الثاني: السِّحر.

المبحث الثالث: مظاهر الشرك القولية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: شرك الدعاء.

المطلب الثاني: نسبة النعم إلى غير الله.

الباب الثاني آثار الشرك في ضوء القرآن الكريم، وفيه فصلان:

الفصل الأول: آثار الشرك الدنيوية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الشرك أعظم الذنب وأظلم الظلم.

المبحث الثاني: الشرك يهدر الدم والمال.

المبحث الثالث: الشرك يقطع روابط الأخوة والمحبة والقربى.

المبحث الرابع: الشرك يورث الذلّة والخذلان والتخبط في الدنيا.

الفصل الثاني: آثار الشرك الأخروية في ضوء القرآن الكريم، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الشرك محبط لجميع الأعمال.

المبحث الثاني: تحريم الجنة على المشرك وخلوده في النار.

الباب الثالث أساليب القرآن ووسائله في محاربة الشرك، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أساليب القرآن في محاربة الشرك، وفيه مباحث:

المبحث الأول: النهي الصريح.

المبحث الثاني: مخاطبة الفطرة.

المبحث الثالث: الدعوة إلى التفكر في الآيات الكونية.

المبحث الرابع: ذكر محاسن التوحيد.

المبحث الخامس: التذكير بالنعم.

المبحث السادس: التنديد بآلهة المشركين وإظهار عجزها وحقارتها.

المبحث السابع: التشنيع بحال المشركين ورميهم بالسفه والضلال.

المبحث الثامن: التذكير بعقوبة الله للمشركين السابقين.

المبحث التاسع: بيان ما يحصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة.

الفصل الثاني: أساليب القرآن في محاربة المشركين، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الاستفهام التقريري والإنكاري.

المبحث الثاني: القصص القرآني.

المبحث الثالث: ضرب الأمثال.

المبحث الرابع: السبر والتقسيم.

المبحث الخامس: التسليم.

المبحث السادس: الاستدلال بأن ما يدَّعونه مستحيلٌ عقلاً.

المبحث السابع: مجاراة الخصم لتبيين خطئه.

المبحث الثامن: المباهلة.

الفصل الثالث: وسائل القضاء على الشرك ومقاومته في ضوء القرآن الكريم، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الدعوة إلى التوحيد.

المبحث الثاني: نقض شبهات المشركين.

المبحث الثالث: إزالة مظاهر الشرك.

المبحث الرابع: الهجرة.

المبحث الخامس: الجهاد.

الخاتمة: و ذكرت فيها أهم النتائج مع التوصيات.

الفهارس.

وهنا أُنبه إلى أن الباب الأول والثاني داخلان في حدود البحث؛ فإن من منهج القرآن الكريم في محاربته للشرك والتحذير منه وبيان بطلانه، وذكرَ أسبابه الموصلة إليه لتُجْتَنب، وبيان حقيقته ومظاهره لتُعْرَف، وإيضاح آثاره الخطيرة في الدنيا والآخرة؛ لِكي يخافه الإنسان، ويخشى عواقِبَه.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث منهج التفسير الموضوعي، واتَّخذت الإجراءات التالية:

١- الاعتماد على القرآن الكريم، ثم كتب التفسير أساساً للبحث في هذه البحث.

٢- تفسير الآيات تفسيراً إجمالياً عدا ما تدعوا الحاجة إلى الوقوف عنده وتفصيله.

٣- إذا وردت عدةُ آيات في المعنى الواحد اخترت نماذج منها واستغنيت بها عن الباقي.

٤- حاولت ربط قضايا البحث بالواقع المشاهد، وتنزيل هذا الواقع عليها.

٥- عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.

٦- خرَّجت الأحاديث والآثار من مصادرها المعتمدة، ونقلت أحكام الأئمة على ما ليس في الصحيحين من الأحاديث.

٧- شرحت الغريب، وعلَّقت على الغامض، وضبطت االمُشْكِل.

٨- وثَّقْت النصوص، وعزوتها إلى مصادرها الأصلية.

٩- ترجمت بإيجاز للأعلام غير المشهورين عند أول ذكرهم.

١٠- وضعت فهارس للآيات، والأحاديث والآثار، وتراجم الأعلام، والمصادر والمراجع، والموضوعات.

وقد اجتهدت في بحث هذا الموضوع، وتحريره، وإبراز مقاصده وأهدافه، وإن كانت سعته وتشعب مباحثه حالت دون إطالة الوقوف عند آياته، واستخراج المزيد من حكمه وهداياته، فأرجو معذرتي عما حصل فيه من خطأ

أو تقصير.

وفي الختام أشكر الله – تعالى – على إعانته وتيسيره إتمام هذا البحث، فله الحمد كثيراً طيباً مباركاً فيه، ثم أشكر كلَّ من أعانني على إنجازه وإخراجه من الأهل، والزملاء، والأساتذة الكرام الذين تفضلوا بقراءته وتقويمه، وأسأل الله -تعالى- أن يجزيهم عني خير الجزاء.

كما أسأله – سبحانه – الهداية والسداد، والإخلاص في القول والعمل، وأن ينفعنا بكتابه العزيز ويجعلنا من أهله، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

د. إبراهيم بن صالح بن عبد الله الحميضي

الأستاذ المشارك في جامعة القصيم
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم القرآن وعلومه
ناسوخ ٠٦٣٢٦٠١٩٦
Ib1430@gmail.com

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الشرك.

المبحث الثاني: مراتب الشرك.

المبحث الأول: تعريف الشرك

تعريف الشِّرْكُ في اللغة:

الشِّرْكُ في اللغة: هو الاشتراك مطلقاً، وعدم الانفراد.

قال ابن فارس[١]: "الشين والراء الكاف أصلان، أحدهما يدل على اقتران وعدم انفراد...، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلاناً في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً لك...

والآخر يدل على امتداد واستقامة، ومنه شَرَك الصائد، سمي بذلك لامتداده..."[٢].

والشريك المشارك، والشِّرْك كالشريك، والجمع: أشراك وشركاء، كما يقال: شريف وأشراف وشرفاء [٣].

والشِّرْك: الحصَّة والنصيب، كما في الحديث: ((من أعتق شركاً له في عبد...)) [٤]، أي نصيباً كما في بعض الروايات [٥].

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبوالحسين، من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه: معجم مقاييس اللغة، وجامع التأويل في تفسير القرآن، وغيرهما، توفي عام ٣٩٥هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٠٣/١٧، والأعلام ١٩٣/١.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٦٥/٣.

(٣) انظر لسان العرب ٢٢٤٨/٤، وتهذيب اللغة ١٦/١٠.

(٤) متفق عليه، انظر صحيح البخاري مع الفتح ١٥١/٥ ح(٢٥٢٢)، وكل ما أحيل عليه في صحيح البخاري فهو مع الفتح، وأخرجه مسلم في صحيحه ١١٣٩/٢ ح(١٥٠١).

(٥) انظر صحيح البخاري ١٥١/٥ ح(٢٥٢٤).

وقال الراغب الأصفهاني[١]: "الشِّرْكَةُ والمشاركة: خلط المِلكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعداً عيناً كان ذلك الشيء أو معنىً..."[٢].

ومما سبق يتبين أن الشرك في اللغة يطلق على الاشتراك مطلقاً، وعدم الانفراد.

تعريف الشرك في الشرع:

الشرك ضد التوحيد، وهو – أي الشرك –: أن يجعل الإنسان لله نداً في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته [٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأصل الشرك أن تَعْدِل بالله – تعالى – مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحدٌ بالله شيئاً من مخلوقاته في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به"[٤].

ويقول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ[٥]: "الشرك قد عرَّفه النبي ﷺ بتعريف جامع كما في حديث ابن مسعود – رضي الله عنه–

---

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، المعروف بالراغب، من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه: المفردات في غريب القرآن، ومحاضرات الأدباء وغيرهما، توفي عام ٥٠٢هـ، انظر الأعلام ٢/٢٥٥، ومعجم المؤلفين ٤/٥٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص(٤٥١).

(٣) انظر معارج القبول ١/٢٦٨، وفتاوى اللجنة الدائمة ١/٥١٦.

(٤) الاستقامة لابن تيمية ١/٣٤٤.

(٥) هو العلامة الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد في الدرعية، ودرس في الأزهر مختلف العلوم، له رسائل ومؤلفات وشعر، توفي في الرياض سنة ١٢٩٣هـ، انظر علماء نجد خلال ستة قرون ١/٦٣، ومعجم المؤلفين ٦/١٠.

أنه قال: ((يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك...))[١]، والند: المثل والشبيه، فمن صرف شيئاً من العبادات لغيرالله فقد أشرك به شركاً يبطل التوحيد وينافيه"[٢].

ويقول الشيخ عبدالرحمن السعدي[٣]: "وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يعظَّم كما يعظَّم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية أو الألوهية"[٤].

والشرك إذا أطلق في الكتاب والسنة وكلام السلف فإنه ينصرف إلى الشرك في الألوهية، وهو مقصودي في هذا البحث، حيث إنه هو أول ما نهت عنه الرسل، وهو أكثر شرك الأمم، وهو الذي عمَّت به البلوى في كل زمان،، مع العلم أن الشرك في الألوهية مستلزم للشرك في الربوبية والأسماء والصفات، فإن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر [٥].

تنبيه:

يرى كثير من المتكلمين وأهل التصوف قديماً وحديثاً أن التوحيد مختص

---

(١) أخرجه البخاري ١٦٣/٨ ح(٤٤٧٧)، ومسلم ٩٠/١ ح(١٤١).

(٢) الدرر السنية ٣١٩/٢.

(٣) هو العلامة الزاهد المحقق الفقيه المفسر عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله آل سعدي، له تصانيف كثيرة منها تفسيره المشهور، والمختارات الجلية في المسائل الفقهية وغيرها، توفي عام ١٣٧٦هـ في عنيزة، انظر علماء نجد خلال ستة قرون ٤٢٢/٢، ومقدمة تفسيره ٥/١.

(٤) تفسير السعدي ٤٩٩/٢.

(٥) انظر معارج القبول ١٧٩/١، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(١٢).

بالاعتقاد فقط، وعلى هذا فهم ينفون وقوع الشرك في العبادات إذا لم يتضمن الشرك في الاعتقاد، فاتخاذ الوسائط بالسؤال والطلب ليس شركاً عندهم إذا لم يتضمن اعتقاد استقلالية المطلوب وقدرته على الاختراع الذي هو حقيقة الألوهية عندهم، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ليس شركاً عندهم إلا إذا تضمن اعتقاد استحقاق العبادة لمن صرفت له [١].

"وهذا مما يعلم بطلانه بصريح الكتاب والسنة وواقع ما كان عليه المشركون، فقد كانوا معتقدين أن الله هو الخالق والرازق ونحو ذلك من خصائص الربوبية، ولكن شركهم كان من جهة الإرادة، إما من جهة الشرك في الغايات أو في الوسائط والأسباب.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فالمشركون لم يكونوا يعدلون غيره معه بمجرد الاعتقاد، وإنما كانوا يعدلون به غيره في المحبة والإجلال والتعظيم"[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد أخبر - سبحانه - عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بيَّنه في كتابه فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٤٤٠، و ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة للشيخ عبدالله القرني ص(٩٩-١١٨)، ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب للدكتور عبدالعزيز العبداللطيف ص(٣٢٨-٣٤٦).

(٢) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة ص(١٠٠).

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩١]، وقال: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد، فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر: غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع:

فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث، وهو"توحيد الأفعال"، وهو أن

خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكر ونه من دلالة التمانع[١] وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله الا الله، حتى جعلوا معنى الإلهية: القدرة على الاختراع.

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولاً لم يكونوا يخالفون في هذا، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا يقرون بالقدر أيضاً، وهم مع هذا مشركون"[٢].

الفرق بين الكفر والشرك:

الكفر أعم وأشمل من الشرك، فكل شرك كفر وليس كل كفر شركاً، حيث إن الشرك يتضمن وجود مشارك لله – تعالى – في أحد حقوقه، بخلاف الكفر فإنه عدم الإيمان مطلقاً سواء كان بالشرك، أو بجحد النبوة، أو بتكذيب الله – تعالى – أو رسوله ﷺ، أو غير ذلك من نواقض الإيمان، فالشرك نوع من أنواع الكفر كما قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ١]، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥] [٣].

---

(١) وسيأتي بيان المراد بهذه الدلالة في الباب الثالث ـــ إن شاء الله تعالى ـــ انظر ص (٣٦٣).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩٧/٣، وانظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٢٥/١-٢٢٨.

(٣) انظر الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه للشيخ عبدالله السليم ص(١٧).

قال الشيخ عبدالرحمن بن قاسم [١]: "والشرك والكفر يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله، واسم لمن لا إيمان له، وقد يفرق بينهما، فيخص الشرك بقصد الأوثان[٢] وغيرها من المخلوقات مع الاعتراف بالله، فيكون الكفر أعم"[٣].

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "الكفر أعم من الشرك، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أي دين يكون، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً أو ضالاً..."[٤].

---

(١) هو الشيخ العلامة المحقق عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني، برع في علوم كثيرة، له مؤلفات وتحقيقات نفيسة منها حاشيته على الروض المربع، وأصول الأحكام وغيرهما، توفي عام ١٣٩٢هـ، انظر علماء نجد ٤١٥/٢، ومقدمة حاشيته على الروض ٣/١.

(٢) الأوثان جمع وَثَن، وهو الصنم، وقيل: الصنم الصغير، قال ابن الأثير: "الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثَّة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة، كجُثَّة الآدمي تُعمل وتُنصب فتُعبد، والصنم: الصورة بلا جثة، ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين، وقد يطلق الوثن على غير الصورة"النهاية ١٥١/٥، وانظر لسان العرب ٤٦٥/٨، وقيل: الصنم هو ما كان له جسم وصورة، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن، وقيل: الصنم هو كل ما عبد من دون الله، انظر لسان العرب ٢٥١١/٤.

(٣) حاشية ثلاثة الأصول ص(٣٥).

(٤) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ص(٤٩٣).

المبحث الثاني: مراتب الشرك

الشرك في الألوهية ليس مرتبة واحدة، بل هو مراتب بعضها أغلظ من بعض، وقد اختلف العلماء في تقسيمه، فبعضهم جعله ثلاث مراتب: أكبر وأصغر، وخفي، وبعضهم جعله مرتبتين: أكبر، وأصغر [١]، والأرجح - والله تعالى أعلم - أن الشرك الخفي داخل تحت الشرك الأصغر [٢]، ثم إن الشرك الأصغر عموماً قد يرتقي إلى درجة الشرك الأكبر بنيه صاحبه ومقصده.

قال ابن القيم في معرض حديثه عن الشرك الأصغر: "وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده"[٣].

تعريف الشرك الأكبر:

اختلفت تعريفات العلماء للشرك الأكبر وإن اتفقت في مدلولاتها ومعانيها، ومن أجمع هذه التعريفات ما يلي:

١- عرفه ابن القيم بقوله: "هو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين"[٤].

٢- وعرفه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بقوله: "فالأكبر أن يسوِّي غيرَ الله

---

(١) انظر شرح نواقض الإسلام للشيخ حسن العواجي ص(٢٣).

(٢) ويأتي الحديث عنه- الخفي- في مبحث الرياء ـــ إن شاء الله تعالى ـــ في الفصل الثاني، انظر ص(١٠٥).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٣٧٣/١.

(٤) مدارج السالكين ٣٦٨/١.

بالله فيما هو من خصائص الله"[١].

٣- وعرفه الشيخ عبدالرحمن السعدي بقوله: "فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر"[٢].

وقد جعله بعضهم أربعة أنواع، وجعله بعضهم ستة، والراجح - والله تعالى أعلم - أنه ليس محصوراً في أنواع معينة، وما يذكره العلماء إنما هي صور ونماذج منه، قال ابن القيم: "والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله"[٣].

تعريف الشرك الأصغر:

اختلفت تعريفات العلماء للشرك الأصغر، فبعضهم يعرفه بالحدِّ [٤]، وبعضهم يعرفه بضرب الأمثلة[٥]،[٦] ومن أجمع هذه التعريفات ما يلي:

١- تعريف الشيخ عبدالرحمن السعدي حيث يقول: "حدُّ الشرك الأصغر: هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة"[٧].

---

(١) حاشية كتاب التوحيد ص(٥٠).

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد ص(٤٨).

(٣) مدارج السالكين ٣٧٦/١.

(٤) الحَدُّ: هو قول دال على ماهية الشيء، والمراد به التعريف، انظر التعريفات للجرجاني ص(٨٣).

(٥) كقولهم: الشرك الأصغر كيسير الرياء.

(٦) انظر تعريفاته ومناقشتها في رسالة الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه وأنواعه ص(٣٢).

(٧) القول السديد ص(٤٨).

٢- وعرفه الشيخ عبدالرحمن بن قاسم بقوله: "والأصغر: ما أتى في النصوص أنه شرك و لم يصل إلى حد الشرك الأكبر"(١).

٣- وعرفته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بقولها: "الشرك الأصغر: كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركاً"(٢).

الفرق بين الشرك الأصغر والأكبر:

سبق بيان الفرق بينهما من حيث الحد، وهنا أذكر الفروق بينهما من حيث الأحكام المترتبة عليهما في الدنيا والآخرة، وهي كما يلي:

١- الشرك الأكبر مخرج عن ملة الإسلام، بخلاف الأصغر فإنه لا يخرج صاحبه عن الملة، وعلى هذا فإن المشرك شركاً أكبر تجرى عليه أحكام الكفار في الدنيا.

٢- الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال، بخلاف الأصغر فإنه لا يبطل إلا العمل الذي قارنه.

٣- الشرك الأكبر موجب للخلود في النار، ومانع من دخول الجنة، بخلاف الأصغر فإنه لا يوجب الخلود في النار.

٤- الشرك الأكبر لا يغفر إلا بالتوبة منه بخلاف الأصغر فإنه واقع تحت

---

(١) حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٥٠).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة، جمع وترتيب أحمد الدويش ٥١٧/١.

المشيئة الإلهية، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة[١]، وهذه المسألة محل خلاف بين العلماء:

فبعض العلماء يرى أن الشرك الأصغر لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة منه كالشرك الأكبر، لعموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، لكنْ يدخل تحت الموازنة، فإن حصل معه حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار [٢].

وذهب بعض العلماء إلى أن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة كسائر الذنوب، وأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ خاص بالشرك الأكبر.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "من لَحَظَ إلى عموم الآية [٣]، وأنه لم يخص شركاً دون شرك، أدخل فيها الشرك الأصغر، وقال: إنه لا يغفر بل لابد من أن يعذب صاحبه، لأن من لم يغفر له لابد أن يعاقب، ولكن القائلين بهذا لا يحكمون بكفره ولا بخلوده في النار، وأنه يعذب عذاباً أبدياً، لأن هذا مذهب الخوارج[٤] المنحرفين، وإنما يقولون: يعذب عذاباً بقدر شركه، ثم بعد ذلك مآله

---

(١) انظر الإخلاص والشرك الأصغر ص(٣٥)، الشرك الأصغر حقيقته وأحكامه ص(٣٨)، القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين ١/١١١.

(٢) انظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٥١).

(٣) يعني قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨].

(٤) الخوارج: فرقة من فرق المبتدعة، خرجوا على علي ـــ رضي الله عنه ـــ، وهم أول الفرق ظهوراً في هذه الأمة، من عقائدهم: تكفير أصحاب الكبائر، والبراءة من بعض الصحابة، وجواز الخروج على الأئمة، وهم طوائف متعددة، انظر الملل والنحل للشهرستاني ص(٥٠).

إلى الجنة.

وأما من قال: إن الشرك الأصغر لا يدخل في الشرك المذكور في هذه الآية، وإنما هو تحت المشيئة، فإنهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فيقولون كما إنه بإجماع الأئمة أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت هذه الآية التي حكم الله بها للمشرك بتحريم الجنة والخلود في النار، فلا يدخل في تلك الآية، وكذلك لا يدخل في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر: ٦٥]، لأن العمل هنا مفرد مضاف ويشمل الأعمال كلها، ولا يحبط الأعمال الصالحة كلها إلا الشرك الأكبر.

قالوا: وإذا فارق الشركَ الأكبرَ في تلك الأحكام السابقة، بأنه لا يحكم عليه بالكفر والخروج من الإسلام، ولا بالخلود في النار، فارقه في كونه مثل الذنوب التي دون الشرك، وأنه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ولأن مشاركته للكبائر في أحكامها الدنيوية والأخروية أكثر من مشاركته للشرك الأكبر.

ويؤيد قولهم أن الموازنة واقعة بين الحسنات وبين السيئات التي هي دون الشرك الأكبر، لأن الشرك الأكبر لا موازنة بينه وبين غيره، فإنه لا يبقى معه عمل ينفع..."[1].

---

(١) انظر: الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة للشيخ عبدالرزاق العباد ص(١٩٤-١٩٥)، نقلاً عن فتوى بعثها الشيخ عبدالرحمن السعدي إلى الشيخ عبدالرحمن الحصين.

الباب الأول

أسباب الشرك ومظاهره في ضوء القرآن الكريم

وفيه فصلان:

الفصل الأول: أسباب الشرك ضوء القرآن الكريم.

الفصل الثاني: مظاهر الشرك الواردة في القرآن الكريم.

الفصل الأول

أسباب الشرك في ضوء القرآن الكريم

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: الإعجاب والتعظيم والغلو في المخلوقين.

المبحث الثاني: التقليد.

المبحث الثالث: اتباع الهوى.

المبحث الرابع: الكبر.

المبحث الخامس: الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

المبحث السادس: إهمال العقل وعدم التفكـــــر في آيات الله تعالى.

مدخل

الأصل في بني آدم التوحيد، وقد ظلوا على عقيدة التوحيد قروناً عديدة، ثم اختلفوا، ووقع فيهم الشرك، فبعث الله – تعالى – إليهم الأنبياء داعين إلى التوحيد، ناهين عن الشرك، مبشرين من أطاع الله – تعالى – ووحَّده بالسعادة في الدنيا، والجنة في الآخرة، منذرين من عصاه وخالف أمره بالشقاوة في الدنيا، والنار يوم القيامة، وأنزل الله – تعالى – معهم الكتب الإلهية المشتملة على البراهين الواضحة، والشرائع المحكمة والآداب الفاضلة ليحكموا بها بين الناس فيما يختلفون فيه ويتنازعون، كما قال الله – تعالى –: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد أخرج ابن جرير[(١)] عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي قراءة عبد الله[(٢)]:﴿ وَمَا كَانَ

(١) هو الإمام أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، شيخ المفسرين، له مصنفات كثيرة، منها: تفسيره"جامع البيان"، وتاريخه"تاريخ الأمم والملوك"وغيرهما، توفي عام ٣١٠هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ١٠٦/٢، والأعلام ٦٩/٦.

(٢) أي عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وهي قراءة شاذة، انظر البحر المحيط لأبي حيان ١٤٤/٢ (ط: دار الكتب العلمية).

ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩][١].

وأخرج ابن جرير عن قتادة[٢] في قوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال: "كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول من بعث نوح"[٣].

ومما يدل أيضاً على أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد والإيمان قولُ الله – تعالى –: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩]، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي عند هذه الآية: "أي: وما كان الناس إلا أمة واحدة متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه"[٤].

وقد دلت السنة على ذلك، ففي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، كما تَنْتُج البهيمة بُهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء[٥]، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٢/٣٤٧.

(٢) هو قتادة بن دعامة بن عزيز السَّدوسي، البصري، روى عن أنس وأبي الطفيل وغيرهما، حافظ مفسر، مات بواسط سنة ١١٧هـ، انظر تهذيب التهذيب ٨/٣٥١، وتقريب التهذيب ص(٤٥٣).

(٣) تفسير ابن جرير ٢/٣٤٧.

(٤) تفسير السعدي ١/٣٣٨.

(٥) أي كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء، أي مجتمعة الأعضاء سليمة من كل نقص، لا يوجد منها جدعاء ==

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] (١).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمار – رضي الله عنه– (٢)، أن النبي ﷺ قال: ((إن الله – تعالى – قال: وإني خلقت عبادي حنفاء(٣) كلَّهم، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم(٤) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...)) (٥).

ورُوي عن ابن عباس– رضي الله عنهما– في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال: "كانوا كفاراً"(٦)، وهذا القول لا يثبت عن ابن عباس(٧)، وهو مخالف لدلالة الكتاب والسنة كما تقدم.

قال ابن القيم: "وهذا القول ضعيف جداً، وهو منقطع عن ابن عباس،

==

وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء، وإنما يحصل النقص بعد ولادتها، انظر فتح الباري ٢٥٠/٣.

(١) أخرجه البخاري ٢٤٦/٣ ح(١٣٨٥)، ومسلم ٢٠٤٧/٤ ح(٢٦٥٨).

(٢) هو عياض بن حمار بن أبي حمار المجاشعي التميمي، سكن البصرة، وعاش إلى حدود الخمسين – رضي الله عنه –، انظر تهذيب التهذيب ٢٠٠/٨، والإصابة ٤٨/٥.

(٣) حنفاء: أي مسلمون، والحنيف: المائل إلى الإسلام الثابت عليه، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤٥١/١.

(٤) اجتالتهم: أي استخفوهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل، انظر شرح مسلم للنووي ١٩٧/١٧.

(٥) أخرجه مسلم ٢١٩٧/٤ ح(٢٨٦٥).

(٦) تفسير ابن كثير ٢٥٧/١.

(٧) الأثر مسلسل بالعوفيين وهم ضعفاء، انظر تفسير ابن كثير بتحقيق مقبل الوادعي ٤٦١/١.

والصحيح عنه خلافُه"[١].

وقال ابن كثير [٢]: "والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً – عليه السلام –، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض"[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "... وذلك أن الناس كانوا بعد آدم – عليه السلام – وقبل نوح – عليه السلام – على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبوالبشر – عليه السلام –، حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان بدعة من تلقاء أنفسهم لم ينزل الله بها كتاباً ولا أرسل بها رسولاً..."[٤].

وإذا تقرر أن الأصل في البشرية التوحيد، وأن الشرك طارئ عليهم، فإن لحدوث الشرك في الأمم أسباباً أدت إلى ظهوره وانتشاره، وفي المباحث الآتية بيان لأهم أسباب الشرك الواردة في القرآن الكريم.

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/٥٧٣.

(٢) هو الإمام الحافظ أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، محدث، مفسر، مؤرخ، له تصانيف كثيرة منها: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية في التاريخ وغيرهما، توفي عام ٧٧٤هـ، انظر طبقات المفسرين ١/١١٠، والأعلام ١/٣٢٠.

(٣) تفسير ابن كثير ١/٢٥٧.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٨/٦٠٣.

المبحث الأول: الإعجاب والتعظيم والغلو في المخلوقين

إن من أعظم أسباب الشرك الغلو[١] في المخلوق[٢]، وتعظيمه، ورفعه فوق مترلته التي أنزله الله إياها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر المعظَّمين"[٣].

وقال ابن القيم: "وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم.

فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوَّروا الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح - عليه السلام..."[٤].

وبوَّب الشيخ محمد بن عبدالوهاب[٥] في كتاب التوحيد بقوله: "باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين"[٦].

---

(١) الغلو في اللغة: مجاوزة الحد، انظر لسان العرب ٣٢٩/٦، وقال شيخ الإسلام: "الغلو مجاوزة الحد بأن يزاد في حمد الشيء أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك"، اقتضاء الصراط المستقيم ١٠٦/١.

(٢) أياً كان هذا المخلوق، إنساً أو جناً، جماداً أو حيواناً، أو غير ذلك، ولكن البلوى عمت بين المسلمين بالغلو بالبشر من الأنبياء والصالحين وغيرهم.

(٣) مجموع الفتاوى ٣٦٣/١٤.

(٤) إغاثة اللهفان ٥٨٣/٢.

(٥) هو الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي، صاحب الدعوة الإصلاحية السلفية في نجد، رحل في طلب العلم إلى عدة بلدان، دعا الناس إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك، له مصنفات ورسائل كثيرة منها: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات وغيرهما، توفي عام ١٢٠٦هـ، انظر علماء نجد ٢٥/١، والأعلام ٢٥٧/٦.

(٦) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص(١٧١)، وقال في باب آخر: "باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله"ص (١٩٢).

أساليب القرآن الكريم في النهي عن الغلو في المخلوقين:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تنهى عن الغلو وتحذر منه، وتبين أنه من أسباب الشرك والضلال، وذلك بأساليب متنوعة منها:

١- الإخبار بأن أول شرك حدث في الأرض كان سببه الغلو، كما أخبر الله - تعالى - عن قوم نوح - عليه السلام - أنهم حينما دعاهم إلى التوحيد ونبذ الشرك كذبوه وردوا دعوته: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[نوح: ٢٣]، أي قال لهم سادتهم ورؤساؤهم: لا تتركوا عبادة هذه الأوثان: "ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر"، وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، غلا فيهم أتباعهم، فلما ماتوا صوروا لهم تماثيل وسموها بأسمائهم لكي يتذكروهم فينشطوا في العبادة، فآل بهم الأمر إلى الشرك، فعبدوهم من دون الله.

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدُوْمَة الجَنْدَل[١]، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمُراد، ثم لبني غُطيف بالجُرْف[٢] عند سبأ، وأما يَعُوق فكانت لهمْدان، وأما نسْر فكانت لحمْيَرَ لآل ذي الكَلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى

---

(١) دُومَة الجندل: بضم الدال وفتحها، بلدة معروفة شمال المملكة العربية السعودية، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/٤٨٧.

(٢) الجُرْف ــ بضم الجيم، وسكون الراء أو ضمها ــ موضع في اليمن، انظر معجم البلدان ٢/١٢٨.

الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عبدت"[١].

وأخرج ابن جرير عن محمد بن قيس[٢]:﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ يقال: كانوا قوماً صالحين من بني آدم [٣]، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسْقَون المطر فعبدوهم"[٤].

٢- النهي الصريح، فقد نهى الله - تعالى - في القرآن الكريم عن الغلو بلفظه الصريح، وذلك في آيتين:

الأولى: قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].

ففي هذه الآية ينهى الله - تعالى - أهلَ الكتاب[٥] عن الغلو في دينهم،

---

(١) أخرجه البخاري ٦٦٧/٨ ح(٤٩٢٠).

(٢) هو محمد بن قيس المدني القاص، ثقة، وحديثه عن الصحابة مرسل، توفي أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ١٢٥-١٢٦هـ. انظر تهذيب التهذيب ٤١٤/٩، وتقريب التهذيب ص(٥٠٣).

(٣) هذا الأثر وكذا أكثر الآثار تدل على أن هؤلاء الرجال كانوا قبل مبعث نوح ـ عليه السلام ـ وهو ظاهر القرآن، وفي حديث ابن عباس المتقدم ما يدل على أنهم من قوم نوح ومن أتباعه، انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤٢٧/٦.

(٤) تفسير ابن جرير ٢٥٤/١٢.

(٥) جمهور المفسرين على أن المراد بأهل الكتاب في هذه الآية وفي آية المائدة الآتي ذكرها: النصارى ==

فإنهم غلوا في عيسى – عليه السلام – حتى رفعوه إلى مقام الألوهية فعبدوه من دون الله، بل غلوا في أتباعه فَقَدَّسوهم وادَّعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل شيء، حتى في تحليل الحرام وتحريم الحلال، ولهذا قال الله – تعالى –: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١] (١).

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن(٢): "والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى واليهود في العزير...."(٣).

وأما الآية الثانية فهي قول الله – تعالى – في سورة المائدة: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

ففي هذه الآية يأمر الله – تعالى – نبيه محمداً ﷺ أن ينهى أهل الكتاب عن

==

خاصة، وقال بعضهم المراد: اليهود والنصارى، فيكون غلو اليهود في عيسى على هذا القول هو الإفراط في ذمه ووصفه بما لا يليق به، انظر زاد المسير ٢/٢٢٤.

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٦٠٨.

(٢) هو العلامة الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تولى القضاء في الدرعية، وانتقل إلى مصر ودرس على علمائها، ثم عاد فبذل نفسه للتعليم، له مصنفات كثيرة في الأصول والفروع، توفي عام ١٢٨٢هـ في الرياض، انظر علماء نجد ١/٥٦، مشاهير علماء نجد ١/٧٨.

(٣) فتح المجيد ص(١٧١).

الغلو الباطل في أمر المسيح – عليه السلام –، حيث تجاوزوا فيه مترلة العبودية لله – تعالى –، وجعلوه في مترلة الألوهية، كما يأمره – تعالى – أن ينهاهم عن اتباع أهواء من سبقهم من اليهود، ومشايخ الضلال الذين ضلوا في أنفسهم وأضلوا كثيراً من الخلق، وحادوا عن الطريق المستقيم إلى طريق الغواية والضلال[١].

٣- وصف الغلوَّ بأنه اعتداء، كما قال – تعالى –: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]، فإن الله – تعالى – لما مدح الرهبان في الآيات التي تقدمتها[٢]، وكان ذلك داعياً إلى الترهُّب، عقَّب ذلك بالنهي عنه في هذا الدين، فإنه – تعالى – بناه على التوسط رحمة لأهله ولطفاً بهم، وتشريفاً لنبيهم ﷺ [٣].

وقد تتابعت نصوص السنة أيضاً في النهي عن الغلو، والتحذير منه في الاعتقادات والأعمال والألفاظ وبأساليب متنوعة، حيث حذر النبي ﷺ أمته من الغلو بقوله: ((إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين))[٤]، قال شيخ الإسلام: "وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم"[٥]، وقال

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٦٥٥/٤، وتفسير ابن كثير ٨٥/٢.

(٢) وهي قوله – تعالى –: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ﴾... الآيات، [المائدة: ٨٢-٨٦].

(٣) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢٧٤/٦، وانظر تفسير ابن جرير ٩/٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢١٥/١، والنسائي ٢٦٨/٥ ح(٣٠٥٧)، وابن ماجه ١٠٠٨/٢ ح(٣٠٢٩).

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ١٠٦/١.

- رحمه الله -: "وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال..."[١].

وتوعَّد ﷺ الغلاة بالهلاك، فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((هلك المُتَنَطِّعون، قالها ثلاثاً))، أخرجه مسلم [٢].

قال النووي[٣]: "هلك المتنطعون"أي المُتَعَمِّقون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[٤].

والأحاديث في هذه المعنى كثيرة معلومة [٥].

وإلى جانب ذلك جاءت الأحاديث الكثيرة آمرةً بسد الذرائع المؤدية إلى الغلو، فقد نهى النبي ﷺ عن البناء على القبور وإسراجها واتخاذها مساجد، كما نهى عن المبالغة في مدحه وإطرائه ﷺ، واتخاذ قبره عيداً ومسجداً، كذلك نهى عن التصوير، وتوعد المصورين بالعذاب الشديد يوم القيامة، كل ذلك حمايةً لجناب[٦] التوحيد وسداً لأبواب الشرك، حتى وإن كان قصد الإنسان حسناً[٧].

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) صحيح مسلم ٢٠٥٥/٤ ح(٢٦٧٠).

(٣) هو الإمام العلامة يحيى بن شرف بن مري الحزامي النووي، الشافعي، محدث، فقيه، من مصنفاته: شرح مسلم، وروضة الطالبين وغيرهما، توفي عام ٦٧٦هـ، انظر الأعلام ١٤٩/٨، ومعجم المؤلفين ٢٠٢/١٣.

(٤) شرح مسلم للنووي ٢٢٠/١٦.

(٥) انظر رياض الصالحين للإمام النووي ص(٩٤).

(٦) الجناب: ناحية الشيء وما قرب منه، انظر مختار الصحاح ص(٤٨)، والمعجم والوسيط ١٣٨/١.

(٧) للاستزادة في هذا الموضوع يرجع إلى كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وشروحه، وكتاب ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث للأستاذ محمد عبدالحكيم حامد ص(٦٠-٦٥).

ومع هذه النصوص الكثيرة الناهية عن الغلو، المحذرة منه، المبيِّنة لأضراره، وقع كثير من المسلمين في الغلو، وتلبسو بكثير من مظاهره، لاسيما في الأزمان المتأخرة، فقد رفعوا النبي ﷺ إلى مقام الألوهية، ودعوه من دون الله، وأقاموا الموالد المبتدعة، وعظّموا كثيراً من الأولياء والصالحين، وتبركوا بآثارهم، وبنوا على قبورهم المساجد والقباب، وطافوا بها كما يطوفون بالكعبة، واستغاثوا بهم، ودعوهم من دون الله، بل لم يقتصر الأمر على الغلو في الأولياء والصالحين، حيث غلا بعض الناس بالمجاهيل، والمنافقين، والفسقة [1]، فإلى الله المشتكى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) انظر صراع بين الحق والباطل، للأستاذ سعد صادق محمد.

المبحث الثاني: التقليد

التقليد[١] سبب كبير من أسباب الشرك، وعقبة كَؤُد[٢] وقفت في طريق التوحيد، وشبهة اتفقت عليها جميع الأمم لترد بها دعوات الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن التقليد، ولكن بلفظ"الاتباع"، وبيّن أنه ليس مذموماً على الإطلاق، بل منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، فما كان تقليداً لرسل الله - عليهم الصلاة والسلام - أو المؤمنين الصالحين فهو تقليد محمود مثاب صاحبه [٣].

وما كان تقليداً للكفار والفساق والمشركين فهو تقليد مذموم [٤].

أنواع التقليد في القرآن الكريم:

التقليد نوعان:

النوع الأول: التقليد المحمود وينقسم إلى قسمين:

---

(١) التقليد في اللغة: مصدر قلَّدَ، قال في المعجم الوسيط: قلده القلادة: جعلها في عنقه، وقلّد فلاناً: اتبعه فيما يقول من غير حجة ولا دليل، وقلد فلاناً: حاكاه. انظر المعجم الوسيط ٧٥٤/٢، والتقليد بهذا المعنى هو مقصودي في هذا البحث.

(٢) أي: شاقّة المصعد. مختار الصحاح ص ٢٣٤.

(٣) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار سعيد ص(١٦١).

(٤) وقال المراغي في تفسيره: "ليس هذا بتقليد بل اتباع لما أنزل الله، كما قال - تعالى -: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] تفسير المراغي ٤٥/٢.

القسم الأول: تقليد الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، فإن اتباعهم والاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم أمر مطلوب، بل هو واجب، إذْ هم المبلغون عن الله، المبعوثون لهداية البشر، اختارهم الله – تعالى – على علم على العالمين.

ولذلك أمر الله – تعالى – بتقليدهم واتباعهم، وأثنى على المقتدين بهم.

قال الله – تعالى – حاثاً على الاقتداء برسوله ﷺ مؤكداً وجوب اتباعه والتزام هديه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والأسوة: القدوة [(١)].

القسم الثاني: تقليد المؤمنين الصادقين، فإن تقليدهم محمود ممدوح صاحبه، ولكن بشرط أن يكون ما قُلِّدوا فيه أمراً مشروعاً موافقاً للكتاب والسنة.

قال – تعالى – بعد أن ذكر بعض كرامات المتقين وما أعده لهم من أنواع النعيم في الجنة: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١].

والتعبير بالموصول إظهار في مقام الإضمار[(٢)] لتكون الصلة إيماءً إلى أن

---

(١) قال الراغب: "الأُسوة والإسوة كالقِدوة والقُدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً"، المفردات ص(٧٦).

(٢) لأنه تقدم ذكرهم في أول السياق، في قوله تعالى: (إن المتقين في جنات ونعيم).

وجه بناء الخبر الوارد بعدها، أي أن سبب إلحاق ذرياتهم بهم في نعيم الجنة هو إيمانهم، وكون الذُرِّيَّات آمنوا بسبب إيمان آبائهم، لأن الآباء المؤمنين يُلقِّنون أبناءهم الإيمان"[(١)].

ولذلك خلا التقليد من هذا الشرط إذا كان الأب نبياً، كما قال تعالى على لسان يوسف – عليه السلام –: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] [(٢)].

النوع الثاني: التقليد المذموم والذي هو من أكبر أسباب الشرك، وينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تقليد الآباء الضالين، وهو الذي تمسَّكت به جميع الأمم الشركية، وآثرته على اتباع الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، وإنما احتجت به وتمسكت لأنه ليس لديها دليل صحيح على صحة ما هي عليه من الشرك والضلال، ولذلك أنكر الله – تعالى – على المشركين هذا التقليد الباطل، وكشف زيفه وسخر من أهله.

فحينما ذكر الله – تعالى – عن مشركي العرب مقولتهم الكاذبة في أن الملائكة – عليهم السلام – بنات الله – تعالى الله عن ذلك –، وأنهم اتخذوا الأصنام على صورهم وعبدوها من دون الله، بيّن أنه ليس لهم دليل صحيح على ما ادَّعوه، وإنما هو محض التقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم الضالين، ثم قال

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور ٤٨/٢٧.

(٢) انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبدالستار فتح الله ص(٧٧).

مسلِّياً لرسوله ﷺ مخبراً أن جميع الأمم قد شابهت أمته في هذه المقولة الكاذبة، وسبقتها إلى هذه الشبهة الباطلة: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] (١)، ثم ذكر - تعالى - جواب كل رسول لقومه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾، أي: أفرأيتم إن جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم هل أنتم متبعي، وهنا أعلنوا كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الشرك، حتى وإن علموا صدق رسلهم، وفساد ما كان عليه آباؤهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، ولما كان هذا جوابهم ذكر الله جزاءهم العادل: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (٢) [الزخرف: ٢٥].

وقد حكى الله - تعالى - هذه المقولة الباطلة عن بعض الأمم، وذلك في ثنايا قصصهم مع أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام -.

فقد قال قوم نوح - عليه السلام -: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال قوم هود - عليه السلام -: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ

---

(١) قوله ﴿أُمَّةٖ﴾ أي طريقة ومذهب، وقوله: ﴿مُّتۡرَفُوهَآ﴾ : أي أغنياؤها ورؤساؤها، فتح القدير للشوكاني ٤/٧٧٢-٧٧٣.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١/١٧٧، وتفسير ابن كثير ٤/١٣٦، وتفسير السعدي ٦/٦٤٠.

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وقال قوم صالح – عليه السلام –: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [هود: ٦٢].

وقال قوم إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[الشعراء: ٧٤].

وقال قوم شعيب – عليه السلام –: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: ٨٧].

وقال قوم فرعون لموسى – عليه السلام –: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ [يونس: ٧٨].

وحكى الله – تعالى – عن مشركي العرب أنهم إذا دعوا إلى اتباع ما أنزل الله من البينات والهدى، واتباع الرسول – عليه الصلاة والسلام – أبوا وأعرضوا عن ذلك مكتفين بما ورثوه عن أبائهم من الشرك والضلال المبين كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ قال الله – تعالى – منكراً عليهم هذا التقليد الأعمى، مبيّناً بطلان هذه المقالة الفاسدة: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٠].

فإذا كانوا بهذه الحالة فكيف يصح تقليدهم واتباعهم؟"فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله

الذي، يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدىً واتباعاً"[١].

"ثم يرسم لهم صورة زريَّة[٢] تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا يعني ! بل هم أضل من هذه البهيمة فالبهيمة ترى وتسمع وتصيح، وهم صم بكم عمي: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] [٣].

القسم الثاني: تقليد السادة والرؤساء الضالين، وهذا سبب كبير من أسباب الشرك كما تقدم، فإن الناس يحرصون على تقليد كبرائهم وسادتهم، ومشابهتَهم، وذلك لما يرجونه منهم من المطامع الدنيوية، كما أن أولئك السادة والكبراء يبذلون كل ما يستطيعون لكي يصرفوا الناس عن توحيد الله – تعالى – والإيمان برسله، حتى يُبْقوهم بين أيديهم كالقطعان السائبة يصرفونها كما يشاؤن.

قال – تعالى – عن قوم نوح – عليه السلام –: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١].

وقال – تعالى – عن قوم هود – عليه السلام –: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ

---

(١) تفسير السعدي ٣٥٣/٢.

(٢) زريّة: أي حقيرة معيبة، انظر مختار الصحاح ص(١١٤).

(٣) في ظلال القرآن ١٤٩/١.

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩].

وقال - تعالى - عن قوم فرعون: ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٧].

ولذلك يندم المقلدون للسادة الطواغيت، المؤثرون اتباعَهم على اتباع الرسل، وذلك حينما يعاينون العذاب يوم القيامة، ويكتوون بنار جهنم، ولات ساعة مندم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

ومما يؤسف له أن هذا التقليد الأعمى لم يزل موجوداً في هذه الأمة الإسلامية خصوصاً في أبواب الاعتقاد، فإن كثيراً من المسلمين حينما يُنكَر عليه ما عنده من الشرك والبدع، ويُبيَّن له مخالفة ذلك للكتاب والسنة، يأبى ذلك الإنكار ويصرُّ على البقاء على ما هو عليه من الشرك والبدع والضلال، محتجاً بأنه ورث هذا العمل كابراً عن كابر، أو بأن الزعيم الفلاني أو الشيخ الفلاني يعمل هذا العمل ويأمر به، وهذا هو التقليد الأعمى الذي نهى الله - تعالى - عنه، وهذا هو عين الإعراض عن كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ.

المبحث الثالث: اتباع الهوى

الهوى[١] مرض خطير، وداء جسيم، متى ما غلب على الإنسان انطمس قلبه، وعميت بصيرته، وتحكمت فيه شهوته،"فهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه يُنتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المرؤة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكاً"[٢].

ولما كان الهوى بهذه الصفة كان اتباعه وتقديمه على حكم الله وشرعه من أسباب الشرك وعوائق التوحيد، بل إن الهوى نفسه إله يعبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

يقول ابن القيم: "إن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم ولكل عبد صنم في قلبه بحسب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله – سبحانه – كسر الأصنام المجسَّدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً"[٣].

---

(١) الهوى ــ بالقصر ــ في اللغة: هوى النَّفْس أي إرادتها، والجمع: أهواء، انظر لسان العرب ٤٧٢٨/٨، واصطلاحاً: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع، التعريفات للجرجاني ص(٢٥٧).

وقال ابن القيم: الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ولا مدحه مطلقاً، وإنما يذم المُفْرِط، ولما كان الغالب على مطيع هواه وشهوته أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة لعموم الضرر، فلذلك لم يذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه... روضة المحبين ص(٤٠١) بتصرف.

(٢) أدب الدين والدنيا ص(١٧).

(٣) روضة المحبين ص(٤١٠)، وانظر كتاب تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ص(٤٦).

أساليب القرآن الكريم في ذم اتباع الهوى:

نهى الله – تعالى – في القرآن الكريم عن اتباع الهوى، وحذر منه بأساليب متنوعة منها:

١) النهي الصريح، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ [النساء: ١٣٥].

٢) أن الله – سبحانه وتعالى – جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن [(١)]، قال – تعالى –: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال – تعالى –: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣) أن الله – تعالى – شبّه أتْباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى؛ حيث شبَّههم بالكلب [(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) انظر روضة المحبين ص(٤٠٦).

(٢) انظر المرجع السابق ص(٤٠٥).

بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

ففي هذه الآيات يذكر الله – تعالى – قصة ذلك الرجل(١) الذي آتاه الله الكتاب وعلمه العلم، فأعرض عن آيات الله وتركها وآثر عليها هواه وشهوته الفانية، فكفر بعد الإيمان، وضل بعد الهدى ولذلك أدركه الشيطان فأغواه وأضله، فوكله الله – تعالى – إلى نفسه وذلك بسبب ركونه إلى الدنيا وتقديم هواه على مرضاة الله، وتركه العمل بالعلم الذي آتاه الله إياه، ولما كانت هذه حاله شبهه الله – تعالى – بأخس الحيوانات، وأقبحها، وهو الكلب (٢).

قال ابن قتيبة (٣): "كل شيء يلهث فإنما يلهث(٤) من إعياء أو عطش أو علة، خلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الصحة والمرض، وحال الرِّي والعطش"(٥).

٤) الإخبار بالثواب الجزيل لمن لمن نهى نفسه عن هواها، قال –تعالى–: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

---

(١) واختلف في اسمه، والآيات التي أوتيها، وخبر انسلاخه، ولا يثبت في ذلك خبر صحيح، وليس في معرفة ذلك كبير فائدة، انظر تفسير ابن جرير ١٢٢/٦.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١١٨/٦، وتفسير ابن كثير ٢٧٥/٢، وتفسير السعدي ١١٦/٣.

(٣) هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَري، من أئمة اللغة والأدب، ولد ببغداد وسكن الكوفة وولي قضاء دَيْنَوَر، له مصنفات كثيرة منها: تأويل مشكل القرآن، وتأويل مشكل الحديث، والمعارف وغيرها، توفي عام ٢٧٦هـ، سير أعلام النبلاء ٢٩٦/١٣، والأعلام ١٣٧/٤.

(٤) اللَّهث: إخراج اللسان لتعب أو عطش، انظر مختار الصحاح ص(٢٥٣).

(٥) تأويل مشكل القرآن ص(٣٦٩).

٥) النهي عن طاعة أهل الأهواء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٦) الإخبار بأن اتباع الهوى ظلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٧) الإخبار بأن متبع الهوى أضلُّ الناس، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

٨) أن الله - تعالى - جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، كما قال - تعالى -: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] (١).

يقول الإمام الشاطبي(٢) متحدثاً عن الابتداع: "إنه اتباع الهوى، لأن العقل إذا لم يكن متبعاً للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضلال مبين، ألا ترى قول الله - تعالى -: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ

(١) انظر روضة المحبين ص(٤٠٥).

(٢) هو الإمام إبراهيم بن موسى اللخمي، الأندلسي، الغرناطي، المالكي، عالم بالفقه وأصوله، من تصانيفه: الموافقات في أصول الفقه والاعتصام وغيرهما، توفي عام ٧٩٠، انظر الأعلام ٧٥/١، معجم المؤلفين ١١٨/١.

﴿ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]، فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده: وهو الحق والهوى...."[(١)].

ولما أنكر الله – تعالى – على المشركين عبادة الأصنام، واتخاذهم لها لبيوت مضاهاة للكعبة، بيّن أنه ليس لهم دليل أو حجة على ما ادعوا فيها من الإلهية، بل هي أسماء مجردة، حملهم على عبادتها وتأليهها ظنونهم الكاذبة، وأهواؤهم الباطلة، معرضين بذلك عمّا أنزل الله – تعالى – من البينات والهدى [(٢)]، كما قال – تعالى–: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وفي سورة الفرقان يخبر الله – تعالى – عن استهزاء المشركين برسول الله ﷺ واحتقارهم له إذا رأوه، واستمرارهم على عبادة الأصنام الباطلة مع ما تلاه عليهم من الأدلة الكثيرة التي كادت تثنيهم عن عبادتها لولا تكبرهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١- ٤٢]، ولذلك

(١) الاعتصام ١/٥٠.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٧١، وتفسير السعدي ٧/٢٠٨.

توعدهم – سبحانه وتعالى – بالعذاب الشديد يوم القيامة ذلك اليوم الذي يعترفون فيه بسوء فعلهم، ويندمون على قبح صنيعهم.

ثم قال – تعالى – مسلياً رسوله ﷺ: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣] (١).

"وهذا تنبيه على عدم الفائدة من دعوة من سيطرت عليه الأهواء إلى الدين الحق، فانظر فيمن جعل هواه إلهه، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه، واستولى عليه التقليد، وصمّ أُذُنَهُ عن سماع الدليل المقنع والبرهان الساطع، فكل ما زين له الهوى شيئاً انقاد له، وحينئذٍ لن تستطيع منعه من الشرك والمعاصي..."(٢).

ثم أكد بُعْدَهم عن الهداية نظراً لغلبة الهوى على عقولهم مُثبتاً أن غالب هؤلاء المشركين لا يسمعون سماعاً يؤثر في قلوبهم ويستفيدون منه، ولا يعقلون عقلاً يرشدهم إلى ما ينفعهم ويحجزهم عما يضر بهم، فإنهم قد عطلوا عقولهم وأهملوها، شأنهم بذلك شأن الأنعام العجماء، بل هم أسوأ حالاً منها، لأن الأنعام قد قامت بوظيفتها التي خلقها الله من أجلها، أما هؤلاء المشركون فإنهم لم يفعلوا ما خلقوا له وهو عبادة الله وحده وترك ما سواه، قال – تعالى –: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٥].

وكما نهى الله – تعالى – في كتابه عن اتباع الهوى وحذر منه كذلك كان

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣٩٢/٩، وتفسير ابن كثير ٣٣٢/٣، وتفسير السعدي ٤٨١/٥.

(٢) التفسير المنير ٧٣/١٩.

النبي ﷺ، فقد نهى أمته عن اتباع الهوى وبيّن لها ما ينتُج عن ذلك من المفاسد العظيمة، ومما ورد في ذلك حديث أبي برزة الأسلمي – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "إن مما أخشى عليكم شهواتِ الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى"(١).

وهكذا كان الصحابة والتابعون، ومن سار على نهجهم يحذرون الناس من الأهواء ويتصدون لأهلها، إقامةً للحجة، وإبراءً للذمة، ونصحاً للأمة (٢).

هذا، وإن الناظر في حال الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً يجد أن اتباع الهوى سببٌ كبير للشرك، وذلك من وجهين:

الأول: أن بعض المسلمين ابتدعوا بدعاً استحسنوها بآرائهم، ونظَّروها بأهوائهم، فآل بهم الأمر إلى الشرك، وهذا كثير في المسلمين.

الثاني: أن كثيراً من المسلمين حينما ينكر عليه وينهى عمّا يقع فيه من الشرك يأبى ويصرّ على ما هو عليه، وذلك لغلبة الهوى على قلبه، حيث لا تنفع معه المواعظ، ولا تؤثر فيه الآيات والحجج.

---

(١)أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/٤٢٠، وانظر ط: مؤسسة الرسالة٣٣/١٨ح(١٩٧٧٢) وصححه الألباني، انظر تحقيقه (السنة) لابن أبي عاصم ١/١٢.

(٢) انظر مقدمات في الأهواء وافتراق والبدع للدكتور ناصر العقل ص(٤٦)، وما بعدها.

المبحث الرابع: الكِبْر

الكبر[١] علّة خفية، وبليَّة زريَّة، متى ما تلبَّس بها الإنسان تجبّر وتغطرس[٢]، واختال وتصلّف، وتمادى في الضلال والغواية وتتابع في الجهل والعماية،"وآفته عظيمة، وغائلته[٣] هائلة، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))[٤]، وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها"[٥]، ولذلك كان سبباً كبيراً من أسباب الشرك وعائقاً منيعاً في طريق التوحيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكل مستكبر فهو مشرك، ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله، وكان مشركاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ

---

(١) الكبر في اللغة: يقال كَبُرَ ــ بالضم ــ يكبُر أي: عظم فهو كبير، والكبرياء: العظمة والملك، ولا يوصف بها إلا الله – تعالى –، انظر لسان العرب ٣٨٠٧/٦.

وقال الراغب: "الكبر والتكبر والاستكبار تتفاوت، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر: التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة"المفردات ص(٦٩٧).

(٢) تغطرس: تطاول وتكبر وأعجب بنفسه، المعجم الوسيط٦٥٥/٢.

(٣) الغائلة: الشر، مختار الصحاح ص(٢٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ٩٣/١ ح (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ.

(٥) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ص(٣٦٤).

وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤] إلى قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾[غافر: ٢٧] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر: ٣٥]"[1].

وقد أخبر الله – تعالى – في القرآن الكريم عن كثير من الأمم أنهم رفضوا التوحيد الذي جاءت به الرسل وبقوا على شركهم عناداً واستكباراً من بعد ما تبين لهم الحق:

فقال عن قوم نوح على لسان نوح – عليه السلام –: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧].

وقال – سبحانه – عن قوم صالح – عليه السلام –: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾[الأعراف: ٧٥-٧٦].

وقال– سبحانه – عن قوم شعيب – عليه السلام –: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٩٧.

مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقال – جلَّ وعلا – عن فرعون وقومه: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥].

وقال – عز وجل – عـــن اليهـــود: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال- سبحانه – عن مشركي العرب: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

"والاستكبار: شدة الكبر، فالسين والتاء للمبالغة، أي يتعاظمون عـــن أن يقبلوا ذلك من رجل مثلهم"(١).

وقال – تعالى-: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٢-٢٣].

أساليب القرآن الكريم في ذم الكبر والتحذير منه:

وردت النصوص القرآنية الكثيرة محذرةً من الكبر، موضحةً خطورته، مبيّنةً جزاء من اتصف به، وذلك بأساليب مختلفة منها:

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٣/١٠٧.

١) الإخبار بأن سبب كفر إبليس ولعنته وإخراجه من الجنة إنما هو الكبر، فهو أول ذنب عُصي الله – تعالى – به، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٣]،"وقد كرر الله ذكر هذه القصة في كتابه، وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة[١] تعنتاً[٢]، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر[٣]".

٢) النهي عن أخلاق المتكبرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

قال القرطبي[٤]: "معنى الآية: ولا تمل خدك للناس كبراً عليهم، وإعجاباً

---

(١) وهي قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

(٢) يقال: تعنَّت الرجلَ: أي سأله عن شيء يريد بن اللبس عليه والمشقة، انظر المعجم الوسيط ٦٣٠/٢.

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٣٢٠/٤ بتصرف يسير، وقد فنّد ابن القيم ــ رحمه الله ــ هذه الشبهة من خمسة عشر وجهاً.

(٤) هو أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، الخزرجي، الأندلسي، القرطبي، من كبار المفسرين، من مصنفاته: تفسير الجامع لأحكام القرآن، وشرح أسماء الله الحسنى، توفي سنة ٦٧١هـ، انظر معجم المفسرين ٦٥/٢، والأعلام ٣٢٢/٥.

واحتقاراً لهم، وهذا تأويل ابن عباس – رضي الله عنهما – وجماعة"[١].

٣) الإخبار بأن النار دار المتكبرين، وأن الجنة محرمة عليهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، أي صاغرين ذليلين، لأن الجزاء من جنس العمل، فإنهم لما تكبروا عن عبادة الله – تعالى – في الدنيا ألبسهم ثوب الذل والصغار في الآخرة [٢]، وقال – تعالى – بعد أن ذكر حال المشركين في الآخرة وما يتعرضون له من صنوف العذاب الذي يعترفون معه بضلالهم، وبطلان عبادة أصنامهم: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر: ٧٥-٧٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما، إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء،

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٩٣.

وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكليكما ملؤها)) متفق عليه [١].

٤) الإخبار بأن الله - تعالى - لا يحب المستكبرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

٥) الإخبار بأن من صفات الملائكة التي يُحمدون عليها أنهم لا يستكبرون عن عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٦) الإخبار بأن الله - تعالى - يصرف قلوب المتكبرين عن فهم آياته، ويطبع عليها فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً، وذلك جزاء تكبرهم عن عبادة الله، وتجبرهم على خلقه بغير حق، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

٧) تذكير الإنسان بمبدأ خلقه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

وقد حُكي أن مُطَرِّف بن عبدالله بن الشخِّير[٢] نظر إلى المهلَّب بن أبي

---

(١) صحيح البخاري ٨/٥٩٥ ح(٤٨٥٠)، ومسلم ٤/٢١٨٧ ح(٢٨٤٦).

(٢) هو الإمام القدوة الحجة الزاهد أبومحمد مُطَرِّف بن عبدالله بن الشخِّير الحَرَشي العامري البصري، ==

صُفْرَة[١] وعليه حلَّةٌ يسحبها ويمشي الخيلاء [٢]، فقال: يا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أوَّلك نطفة مَذِرَة [٣]، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة"[٤].

وقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تحذر من الكبر وتبيّن عاقبته.

فعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة – رضي الله عنهما – قالا: قال رسول الله ﷺ: ((العز إزاره [٥]، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته))، [٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية، والكبرياء أعلى من العظمة، ولهذا جعلها بمنزلة الرداء، كما جعل العظمة بمنزلة الإزار"[٧].

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يدخل

==

ثقة من كبار التابعين، توفي سنة ٨٦هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٨٧/٤، وتقريب التهذيب ص(٥٣٤).

(١) هو الأمير أبو سعيد المهلَّب بن أبي صُفْرَة الأزدي البصري، من أمراء الأمويين، توفي سنة ٨٢ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٨٣/٤، والأعلام ٣١٥/٧.

(٢) الخيلاء: الكبر، مختار الصحاح ص(٨٢).

(٣) مَذِرَة أي فاسدة، يقال: مذرت البيضة أي: فسدت، انظر لسان العرب ٤١٦٣/٧.

(٤) أدب الدنيا والدين ص(٢٠٢).

(٥) الضمير هنا يعود إلى الله – تعالى – كما في بعض الروايات في غير صحيح مسلم، انظر سنن أبي داود ٣٥٠/٤ ح(٤٠٩٠).

(٦)أخرجه مسلم ٢٠٢٣/٤ ح(٢٦٢٠).

(٧) مجموع الفتاوى ١٩٦/١٠.

الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر)) [١].

والمتأمل في حال المسلمين يجد أن هذا الخلق الذميم - عافانا الله تعالى منه - لا يكاد يسلم منه أحد، فمستقل منه ومستكثر، ويتجلي ذلك في مظاهر كثيرة، أهمها وأخطرها التكبر عن قبول الحق والرجوع عن الباطل، والاعتراف بالخطأ، فإن بعض الناس يأْنَف[٢] من قبول الحق والانقياد له، خاصةً إذا صدر من شخص أصغر منه سناً، أو أقل منه علماً، ظناً منه أن الرجوع إلى الحق ينقص وزنه، أو يحطُّ من قدره، وهذا سرُّ بقاء كثير من الشركيات، والعقائد المنحرفة بين المسلمين.

(١) تقدم تخريجه في ص(٤٥).

(٢) أي يستنكف، مختار الصحاح ص(١٢).

المبحث الخامس: الجهل باللّه - تعالى- وأسمائه وصفاته

إن الجهل بالله – تعالى – سبب كبير من أسباب الشرك، فمن عرف الله – تعالى – حق المعرفة لا يمكن أن يشرك به أحداً من خلقه، وإنما وقع المشركون في الشرك لأنهم لم يعرفوا الله حق المعرفة، ولم يقدِّروه حق قدره ؛ إذْ لو عرفوه وقدَّروه وعظموه كما ينبغي ما وقعوا فيما وقعوا فيه من الإثم العظيم.

و"أول فرض فرضه الله على خلقه: معرفتُه، فإذا عرفه الناس عبدوه، قال الله – تعالى –: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها، فيعظموا الله حق عظمته، ولو أراد رجل أن يعامل رجلاً طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، فالله الذي خلقنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها"(١).

ويقول ابن القيم وهو يتحدث عن مترلة التعظيم: "وهذه المترلة تابعة للمعرفة، فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب – تعالى – في القلب، وأعرف الناس به: أشدهم تعظيماً وإجلالاً له، وقد ذم الله – تعالى – من لم يعظِّمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق وصفه، فقال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣].

---

(١) الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني ١/١٢٢.

قال ابن عباس ومجاهد[١]: "لا ترجون لله عظمة"، وقال سعيد بن جبير[٢]: "ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته"[٣].

ومعرفة الله – تعالى – لا تتحقق إلا بمعرفة أسمائه وصفاته.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: "إن معرفة الله – تعالى – تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على مال م يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه"[٤].

اقتران النهي عن الشرك في القرآن الكريم بذكر بعض أسماء الله تعالى وصفاته.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يجد أن الله – تعالى – حينما يذكر شرك المشركين يتقدم ذلك أو يَعْقُبُه بذكر بعض أسمائه وصفاته الدالة على عظمته وانفراده بالخلق والملك والتدبير.

قال شارح الطحاوية: "ويستدل بأسماء الله – تعالى – وصفاته على

---

(١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم، المكي، تابعي ثقة، من أئمة التفسير، توفي سنة ١٠٤هـ، انظر تقريب التهذيب ص(٥٢٠)، وحلية الأولياء ٢٧٩/٣.

(٢) هو سعيد بن جبير الأسدي مولاهم، الكوفي، ثقة، من علماء التابعين، قتله الحجاج عام ٩٥هـ، انظر تقريب التهذيب ص(٢٣٤)، وحلية الأولياء ٢٧٢/٤.

(٣) مدارج السالكين ٥١٦/٢، وانظر تفسير ابن جرير ٢٤٩/١٢.

(٤) تفسير السعدي ٢٤/١.

وحدانيته وعلى بطلان الشرك"[١].

ومن الآيات الواردة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[الزمر: ٦٢-٦٧].

ففي هذه الآيات يخبر الله – تعالى – أنه خالق جميع المخلوقات والمتصرف فيها، وأن خزائن السموات والأرض بيده – تعالى –، فهو مالكها وحافظها، ثم يبيّن – تعالى – خسارة الذين كفروا بآياته الدالة على عظمته ووحدانيته، فلم ينتفعوا بها ويتعظوا بما فيها، ثم يأمر رسوله ﷺ أن ينكر على المشركين الجهلة دعوتهم إياه إلى عبادة أصنامهم، مبيناً عاقبة الشرك وأثره، وأنه محبط لجميع الأعمال، ثم يأمر رسوله ﷺ أن يعبده وحده لا شريك له، ويشكره على نعمه العظيمة، وبعد تقريره – تعالى – للتوحيد ونهيه عن الشرك، يبيّن سبب شرك المشركين وهو أنهم لم يعظموه حق عظمته، وذلك لجهلهم به – تعالى –.

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٥٢/١.

قال ابن كثير: "يقول – تبارك وتعالى –: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أي: ما قدر المشركون الله حق قدْره حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته"(١).

ثم يذكر – تعالى – مظهراً من مظاهر عظمته، وهو أنه يجعل الأرض في قبضته يوم القيامة، ويطوي السموات بيمينه (٢)،"فصاحب هذه القدرة العظيمة كيف يعبد معه آلهة أخرى هي أصنام وتماثيل وأوثان"(٣).

وفي ختام الآية يتره – سبحانه وتعالى – نفسه عن شرك المشركين، وافتراء الآثمين ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٤).

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند هذه الآية: "ما ذكر الله – تبارك

---

(١) تفسير ابن كثير ٦٧/٤.

(٢) روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ قال: ((جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، صحيح البخاري ٥٥١/٨ ح(٤٨١١)، ومسلم ٢١٤٧/٤ ح(٢٧٨٦).

(٣) أيسر التفاسير ٦١/٤.

(٤) انظر تفسير ابن جرير ٢٢١/١١، وتفسير ابن كثير ٦٧/٤، وتفسير السعدي ٤٨٩/٦.

وتعالى – من عظمته وجلاله أنه يوم القيامة يفعل هذا، وهذا قدْر ما تحتمله العقول، وإلا فعظمة الله وجلاله أجل من أن يحيط بها عقل...، فمَن هذا بعض عظمته وجلاله كيف يجعل في رتبته مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً"[(١)].

وفي سورة الأنعام نجد أن الله – تعالى – يذكر بعض صفاته الدالة على عظمته وقدرته ورحمته بخلقه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩]، ثم يعقِّب ذلك برده على المشركين الذين عبدوا معه غيره من الجن[(٢)] والأصنام وغيرها، واختلقوا له البنين والبنات بغير علم، ثم يتره نفسه عما وصفوه به مبيناً أنه هو الخالق لهم جميعاً، وأنه – تعالى – مبدع السموات والأرض، وخالقهما على غير مثال سابق، فمَن كان هذا خلقه، وهذه قدرته كيف يكون له ولد؟! والحال أنه – سبحانه – ليس له صاحبة، ولو كان له ذلك لعلمه لأنه – سبحانه – بكل شيء عليم، ولكنه افتراء واختلاق.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

---

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ٣٤٦/٤.

(٢) قال بعض المفسرين: إن المقصود بعبادتهم الجن طاعتهم، لأنهم الذين أمروهم بعبادة الأصنام، انظر تفسير ابن كثير ٦١/٢.

قال الزمخشري[١] عند هذه الآية: "وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه"، فذكر الأول[٢]، ثم قال: "والثاني أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو متعالٍ عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة، والثالث: أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج"[٣].

"وعلى هذا النحو كان الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وبقوله - تعالى -: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤].

ذلك أن الله خالق كل شيء باعتراف المشركين، لأنهم لا يزعمون أن الأصنام خالقة لشيء، فلما كان الله خالقَ كل شيء وربَّه، فلا حق لغيره في أن يعبده الخلائق، وبهذا يتبين أن عبادة غير الله ظلم عظيم، لأنها اعتداء على حق الله في أن يعبد وحده، وكفر بنعمة الربوبية"[٤].

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري المعتزلي، من أئمة اللغة والتفسير، من مؤلفاته الكشاف، وأساس البلاغة وغيرها، توفي عام ٥٣٨هـ، انظر معجم المفسرين ٣١٤/٢، والأعلام ١٧٨/٧.

(٢) وقد أعرضت عن ذكره لأنه مبني على عقيدته المنحرفة.

(٣) تفسير الزمخشري ٣٢/٢.

(٤) تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام، للدكتور إبراهيم الكيلاني ص(٣٤)، وانظر تفسير التحرير والتنوير ٢٥٦/٨.

نعود إلى سياق الآيتين السابقتين [١]، ففي الآية التالية لهما يؤكد الله – سبحانه وتعالى – انفراده بالوحدانية، ويأمر بعبادته وحده، ثم يختم الآية مخبراً أنه حافظ لكل شيء ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

"والآية الأخيرة في السياق الكريم يقرر – تعالى [فيها] حقيقة كبرى وهي أن الله – تعالى – مباين لخلقه في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، فكيف يُشرَك به، وكيف يكون له ولد ! وهو لا تدركه الأبصار وهو يدركها، وهو اللطيف الذي ينفذ علمه وقدرته في كل ذرات الكون علويه وسفليه، الخبير بكل خلقه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وهو العزيز الحكيم، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣][٢].

وقد ختم الله – تعالى – سورة الحشر بذكر طائفة من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، مبتدئاً بكلمة التوحيد مكرراً لها في الآية الثانية، خاتماً لها بتنزيه نفسه عن الشركاء والأنداد.

يقول الله – سبحانه وتعالى –: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ

---

(١) وهما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ .... الآيتين.

(٢) أيسر التفاسير ٦٤١/١، وانظر تفسير ابن كثير ١٦٥/٢، وتفسير السعدي ٤٤٥/٢.

سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: "هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن وبديعة البرهان.

فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله غيره فإنه باطل، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً.

ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي.

ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله الجميع مماليك لله، فقراء مدَبَّرون، ﴿ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ أي: المقدَّس السالم من كل عيب ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه من كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ ﴾ أي: المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاؤا به بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير ويغني الفقير.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لجميع المخلوقات، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ للمبروءات، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ للمصوَّرات.

وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد به، لم يشاركه فيه مشارك.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي له الأسماء الكثيرة جداً، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك فكلها حسنى، أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه.

ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها [1].

ومن كماله وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا أن جميع من في السموات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده ويسألونه

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

حوائجهم فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً[١] إلا لحكمة ومصلحة"[٢].

تنبيهات:

في ختام هذا المبحث أحب أن أذكر بعض التنبيهات المهمة على وجه الإيجاز، وهي كما يلي:

الأول: منهج السلف الصالح - أهل السنة والجماعة - إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف[٣] ولا تعطيل[٤]، ومن غير تكييف[٥] ولا تمثيل[٦]. [٧].

الثاني: أسماء الله إن دلت على وصف متعدٍّ تضمَّنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله عزوجل.

---

(١) قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ خبر كان واسمها محذوف.

(٢) تفسير السعدي ٣٤٥/٧.

(٣) التحريف: تغيير ألفاظ الأسماء والصفات كقول الجهمية في"استوى"استولى، أو تغيير معانيها كقول بعض المبتدعة إن معنى الغضب في حق الله: إرادة الانتقام.

(٤) التعطيل: نفي صفات الله - تعالى -.

(٥) التكييف: بيان الهيئة التي تكون عليها الصفات، فلا يقال: كيف استوى مثلاً.

(٦) التمثيل: هو تشبيه صفات الله بصفات المخلوقين، لأنه تعالى ليس كمثله شيء.
لبيان هذه المصطلحات الأربعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل انظر تعليق الشيخ عبد العزيز ابن باز على التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة والواسطية من المباحث المنيفة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص(١٥-١٦).

(٧) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية بشرح الشيخ صالح الفوازان ص(١٣).

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها ذلك الاسم لله – عزوجل –.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال ذلك: "السميع"يتضمن إثبات"السميع"اسماً لله تعالى، وإثبات"السمع"صفة له، وإثبات حكمه مقتضاه وهو أنه يسمع السر والنجوى.

وإن دلت على وصف غير متعدٍّ تضمَّنت أمرين:

أحدهما: ثبوت ذلك الاسم لله – تعالى –.

والثاني: ثبوت الصفة التي تضمَّنها لله – تعالى –.

مثال ذلك"الحي"يتضمن إثبات"الحي"اسماً لله – تعالى – وإثبات الحياة صفة له [١].

الثالث: أسماء الله – تعالى – وصفاته توقيفية، فلا يثبت له من الأسماء والصفات إلا ما دل عليه الكتاب والسنة [٢].

الرابع: أسماء الله – تعالى – غير محصورة في عدد معين لحديث ابن مسعود – رضي الله عنه –: ((أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[٣].

والشاهد من الحديث قوله: ((أو استأثرت به في علم الغيب عندك))، فهذا لا يعلمه إلا الله، فلا يدخل تحت حصر أحد من الخلق.

---

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ ابن عثيمين ص(١٣).

(٢) القواعد المثلى ص(١٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤٥٢/١، وصححه الحاكم في المستدرك ٥٠٩/١، وابن حبان، انظر موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ١٠٦٨/٢ ح(٢٣٧٢)، وصححه أيضاً ابن القيم في شفاء العليل ص(٤٥٣).

وأما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة المتفق عليه: ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل الجنة)) (١)، فمعناه: الإخبار بأن من أحصى هذه الأسماء دخل الجنة، وليس المراد الحصر، بل المراد بإحصائها حفظها واعتقاد ما دلت عليه من المعاني، والعمل بمقتضاها (٢).

الخامس: "ومما يستحق تقريره - هاهنا - أن تلازماً وثيقاً بين إثبات الأسماء والصفات لله - تعالى - وتوحيد الله - تعالى - بأفعال العباد، فكلما حقق العبد أسماء الله وصفاته علماً وعملاً، كلما كان أعظم وأكمل توحيداً، وفي المقابل فإن هناك تلازماً وطيداً بين إنكار الأسماء والصفات وبين الشرك"(٣).

يقول ابن القيم - في تقرير هذا التلازم -: "كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه لولا تعطيل كماله - أو بعضه - وظن السوء به لما أُشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهلِ التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]، أي: فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟"(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٣٧٧/١٣ ح(٧٣٩٢)، ومسلم ٢٠٦٣/٤ ح(٢٦٧٧).

(٢) انظر فتح الباري ٢٢٠/١١، وقد أطال الحافظ ابن حجر الكلام على هذا الحديث، وذكر من تتبعها من العلماء، وانظر القواعد المثلى ص(١٧).

(٣) مقال للدكتور عبدالعزيز العبداللطيف في مجلة البيان، العدد التاسع والتسعين ص(٨٩).

(٤) مدارج السالكين ٣٦٤/٣، وانظر تفسير ابن جرير ٥٠٠/١٠.

المبحث السادس: إهمال العقل، وعدم التفكر في آيات الله - تعالى-

إن من أجلِّ نعم الله – تعالى – على الإنسان نعمة العقل التي فضل بها على سائر المخلوقات، فبالعقل يميز الإنسان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والطيب من الخبيث.

وقد جاءت الشرائع السماوية موافقةً للعقول السليمة، والفطر المستقيمة، ولذلك دلت العقول السليمة على وجوب إفراد الله – تعالى – بالعبادة وبطلان الشرك.

"وبهذا كان العقل حجة مستقلة في بطلان الشرك، ولو لم يأت بحرمته شرع"(١).

قال القرطبي عند قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]: "أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه، وليس منها شيء منسوخ، وكذلك هي في جميع الكتب، ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل، وإن لم يترل به الكتاب"(٢).

وقال ابن القيم: "قال تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ولم يقل: إلهكم، والرب: هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله – تعالى – هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة مَن

(١) آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد لمدحت حسن الفراج ص(٨٩).
(٢) تفسير القرطبي ١١٨/٥.

هذا شأنه وحده لا شريك له"[١].

وقال ابن تيمية: "وهذا يقتضي [أي فَطْرُ الذرية على التوحيد] أن نفس العقل الذي به يعرفون التوحيد حجة في بطلان الشرك، لا يحتاج ذلك إلى رسول، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا"[٢].

ولهذا ينكر الله – تعالى – في القرآن الكريم على المشركين إهمال عقولهم وعدم الاستدلال بها على وحدانيته – تعالى –، فهناك آيات كثيرة في سياق مجادلة المشركين، وإبطال شركهم يختمها الله – تعالى – بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

ومن أعظم وظائف العقل التي خلق من أجلها التفكر[٣] في آيات الله – تعالى – الدالة على ربوبيته، وإلهيته، وقدرته، وعظمته، وحكمته، ورحمته.

قال ابن القيم: "وإذا تأملت ما دعى الله – سبحانه – في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به – سبحانه وتعالى – وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه، وبره

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٣١٥/٤.

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٤٩١/٨، لكن الله تعالى لا يؤاخذ الناس إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

(٣) قال ابن منظور: الفكر: إعمال الخاطر في الشيء،.. وقد فكّر في الشيء وأفكر فيه وتفكر بمعنى، وقال الجوهري: التفكر: التأمل"، لسان العرب ٣٤٥١/٦.

ولطفه وعدله ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته"[(١)].

وقد حثَّ الله – تعالى – في القرآن الكريم على التفكر في آياته، وأثنى على المتفكرين المستبصرين، كما قال – تعالى –: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

كما ذم الله – تعالى – من لا يتفكر في مخلوقاته الدالة على وحدانيته وعظمته، قال – تعالى –: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قال ابن جرير: "يقول – جل وعز –: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرة وحجة، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾ يقول: يعاينونها فيمرون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها ولا يتفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهية لا تنبغي إلا

(١) مفتاح دار السعادة ١٩٣/١.

للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء، فدبَّرها"[١].

ثم يبين – تعالى – أن إقرارهم بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق المالك المدبِّر لا ينفعهم ماداموا مشركين به في ألهيته، فيقول: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وآيات الله – تعالى – التي أمر بالتفكر فيها نوعان:

النوع الأول: الآيات المتلوة المسموعة، وهي آيات القرآن الكريم، فإن القرآن إنما نزل ليَتَدَبَّر[٢] الناس آياته ويتفكروا فيها"فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها"[٣]، كما قال – تعالى –: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، ولهذا أنكر الله – تعالى – على المشركين إعراضهم عن تدبر القرآن، والتفكر في آياته، فقال – تعالى –: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

النوع الثاني: الآيات الكونية المرئية، وهي ما نشاهده في هذا الكون الفسيح من الدلائل الواضحة، والبراهين الساطعة، والمشاهد الباهرة، في الأنفس والآفاق، والتي تشهد بأن لهذا الكون رباً عظيماً قديراً لا تنبغي العبادة إلا له

---

(١) تفسير ابن جرير ٣١١/٧.

(٢) قال الجرجاني: التَدَبُّر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا إن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبُّر تصرفه في النظر في العواقب، التعريفات: ص(٥٤).

(٣) تفسير السعدي ٤١٨/٦.

- سبحانه -، قال - تعالى -: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، وسيأتي زيادة بيان وتفصيل لهذا الأمر في الباب الثالث - إن شاء الله تعالى - [(١)]، و المقصود بيانه هنا هو أن الإعراض عن تدبّر آيات الله - تعالى - المسموعة والمرئية، وعدم التفكر فيها سبب كبير من أسباب الشرك، فقد أسلم كثير من الناس قديماً وحديثاً حينما قَرَعَتْ أسماعهم آيات القرآن الكريم، فأنصتوا لها متدبِّرين، وتأملوها متجردين، وأسلم آخرون حينما انكشفت لهم بعض مظاهر عظمة الخالق المتمثلة في بديع صنعه وعجيب خلقه، فلم يسعهم إلا أن يستسلموا لله مذعنين، ويوحدوه موقنين.

"فسبحان الذي أوضح دلالته للمتفكرين، وأبدى شواهده للناظرين، وبين آياته للغافلين، وقطع عذر المعاندين، وأدحض حجج الجاحدين، وأعمى أبصار الغافلين، وتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله مالك يوم الدين، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين"[(٢)].

---

(١) انظر ص (٢٧٠).

(٢) كتاب العظمة لأبي الشيخ الأصفهاني ٢٨٦/١.

الفصل الثاني

مظاهر الشرك الواردة في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مظاهر الشرك الاعتقادية في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الثاني: مظاهر الشرك العملية في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الثالث: مظاهر الشرك القولية في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الأول: مظاهر الشرك الاعتقادية في ضوء القرآن الكريم

المطلب الأول: شرك المحبة:

إن الباعث على كل عمل هو المحبة [١]، فالإنسان لا يعمل عملاً من الأعمال إلا وهو محب له، أو لما يترتب عليه من جلب منفعة أو دفع مضرة، وعبادة الله – تعالى – مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة [٢]، كما أن أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة [٣]،"ولهذا لما أحب المشركون ألهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله"[٤].

أقسام المحبة:

تنقسم المحبة إلى قسمين:

القسم الأول: المحبة الخاصة، وهي محبة العبودية التي تستلزم الذل والتعظيم والطاعة للمحبوب، وهذه خاصة بالله – تعالى –، وصرفها لغيره شرك أكبر.

القسم الثاني: المحبة المشتركة، وهي خمسة أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وهي محبة ما يحبه الله – تعالى – من

---

(١) قال ابن القيم: "لا تُحَدُّ المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة"، مدارج السالكين ٣/١٠.

(٢) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ٢/١٤١.

(٣) قاعدة في المحبة ضمن جامع الرسائل لابن تيمية ٢/٢٥٥.

(٤) شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ٢/١٤١.

الأشخاص كالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، أو الأعمال كالصلاة والزكاة والحج والجهاد وغيرها، وهذا النوع من المحبة واجب على المكلف.

النوع الثاني: محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد لوالده.

النوع الثالث: محبة إشفاق ورحمة، كمحبة الوالد لولده.

النوع الرابع: محبة أُنْس وإلفة، كمحبة الشريك لشريكه، والصديق لصديقه، والأخ لأخيه.

النوع الخامس: المحبة الطبيعية، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، والمجهود للنوم [1].

وهذه الأنواع الأربعة الأخيرة جائزة، لا يؤاخذ الإنسان بحبها، ولا تعد شركاً، بل قد تكون مندوبة، وذلك إذا اقترنت بالنية الصالحة، كأن يحب الولد والده امتثالاً لأمر الله وقياماً بواجب البر، ويحب الإنسان الطعام لكي يعينه على طاعة الله وهكذا، لكن يشترط أن لا تزاحم هذه المحبة محبة الله، بحيث يترتب عليها الإخلال بشيء من أمر الله وشرعه، فإنها حينئذٍ تكون مذمومة، بل قد تكون شركاً، قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟

(١) انظر القول السديد (١١٢)، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٣٦)، وشرح كتاب التوحيد لابن عثيمين ١٤١/٢.

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] ففي هذه الآية يأمر الله – تعالى – رسوله ﷺ أن يتوعد من قدم محبة هذه الأمور الثمانية على محبة الله ورسوله ومحبة ما يحبه الله من الأعمال الصالحة، وأما من أحبها و لم يُؤْثِرْها على محبة الله أو يساويها بها فهو غير مذموم.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد، والمقت الأكيد على من كان شيء من المذكورات أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يفوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله أو يُنْقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله دل على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه"(١).

علامات محبة الله تعالى في القرآن الكريم:

ذكر الله – تعالى – في القرآن الكريم لمحبتة علاماتٍ تعرف بها وتدل عليها، فمنها:

١) تقديم ما يحبه الله – تعالى – ويرضاه على ما تحبه نفسه وتهواه، كما في الآية السابقة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ أَبَدًا .. ﴾ [التوبة:٢٤].

٢) اتباع الرسول ﷺ، وذلك بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، كما

(١) تفسير السعدي ٣/٢١٤.

قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال بعض السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية [١].

٣) الذلة على المؤمني، أي اللين والرفق والرحمة بهم.

٤) العزة على الكافرين، وذلك بالشدة عليهم والغلظة والرفعة.

٥) الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

٦) الثبات على الحق، ونصرته، والدعوة إليه، وعدم الالتفات إلى لوم الناس وتنقصهم وازدرائهم.

ويدل على هذه العلامات الأربع الأخيرة قوله - تعالى - في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

الشرك في المحبة:

أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده [٢]، وأصل الشرك به الشرك في المحبة [٣]، فمن أحب أحداً من الخلق كما يحب الله - تعالى - فهو مشرك

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٦٦.

(٢) القول السديد ص(١١٠).

(٣) الشرك الأكبر حقيقته وحكمه وأنواعه لأسماء السلمان ١/١٣٦.

شركاً أكبر، كما قال – تعالى – عن المشركين: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فإن الله – تعالى – لما بيّن في الآيتين اللتين تقدمتا هذه الآية[١] انفرادَه بالوحدانية بالأدلة القاطعة والبراهين الواضحة ذكر في هذه الآية أن من الناس – مع هذا البيان التام – من اتخذ من دون الله أمثالاً ونظراء يساوونهم بالله في العبادة، والمحبة، والتعظيم [٢]، وليس المراد أنهم يساوونهم بالله في الخلق والملك والتدبير، فإنهم يقرون بانفراد الله بهذه المعاني [٣]، ثم مدح – تعالى – المؤمنين مبيناً أنهم أشد حباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم [٤]؛ لأن محبتهم له خالصة بخلاف محبة المشركين فإنها ممزوجة بمحبة أندادهم، وفي ختام الآية يتوعد – سبحانه وتعالى – هؤلاء المشركين الظالمين لأنفسهم باتخاذهم الأنداد ومحبتهم لها مخبراً عن حالهم حينما يعاينون العذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يعلمون فيه علم اليقين أن القوة والقدرة والأمر والحكم لله وحده لا شريك له، وأن الله

---

(١) وهما قوله – تعالى –: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾... الآية، [البقرة: ١٦٣-١٦٤].

(٢) انظر تفسير السعدي ١/١٩٥، وقيل المراد: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، تفسير ابن جرير ٢/٧١.

(٣) انظر مدارج السالكين ٣/٢٠.

(٤) هذا قول أكثر المفسرين انظر تفسير ابن جرير ٢/٧١، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن المراد: أشد حباً لله من محبة أهل الأوثان لله، الفتاوى ٨/٣٥٨.

شديد العذاب لمن أشرك به وعصاه [١].

ونظير هذه الآية قوله – تعالى – حكايةً عن أهل النار من المشركين أنهم يقولون لآلهتهم وأصنامهم التي كانوا يحبونها ويعظمونها ويعبدونها من دون الله: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الشعراء: ٩٧، ٩٨].

قال ابن القيم: "وهذا هو العدل المذكور في قوله – تعالى –: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم"[٢].

مظاهر الشرك في المحبة:

وقد انتشر هذا النوع من الشرك بين كثير من المسلمين – مع الأسف الشديد – ويتجلى ذلك في مظاهر كثيرة من أخطرها وأكثرها انتشاراً الغلو في محبة النبي ﷺ والأولياء والصالحين والأئمة والمصلحين، وتعظيمهم تعظيماً يضاهي تعظيم الله، وقد تقدم الكلام على هذا الأمر في مبحث الغلو في الفصل الأول[٣].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/، وتفسير السعدي ١/١٩٥٢٠٨.

(٢) مدارج السالكين ٣/٢٢، وانظر تفسير ابن جرير ٩/٤٥٥، وكتاب تجريد التوحيد المفيد ص(٥٣).

(٣) انظر ص (٤٠).

المطلب الثاني: شرك الخوف

الخوف[١] من الله من أعظم العبادات وأجلِّ المقامات، ولذلك يجب إخلاصه لله – تعالى –.

وحدُّ الخوف من الله: ما حجزك عن محارم الله، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية [٢]، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط [٣].

أقسام الخوف من غير الله:

تقدم الكلام على الخوف من الله – تعالى – ويأتي مزيد بيان لذلك، وأما الخوف من غيره فينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بمكروه بقدرته ومشيئته، ويسمى خوف السِّر، وهذا شرك أكبر.

القسم الثاني: أن يخاف الإنسان من غير الله خوفاً يترتب عليه ترك واجب أو فعل محرم، وهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، ويدل على ذلك قوله

---

(١) الخوف لغة: الفزع، وعرفه بعضهم بقوله: "توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، لسان العرب ٣/١٢٩٠، المفردات ص(٣٠٣).
والخشية والرهبة والوجل بمعنى الخوف، وليست مرادفة له بل هي مقاربة، والفرق بين الخوف والخشية: أن الخشية: خوف مبني على العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه وقدرته، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف، انظر مدارج السالكين ١/٥٤٩، والقول المفيد لابن عثيمين ٢/١٧٠.

(٢) مدارج السالكين ١/٥٥١.

(٣) المرجع السابق، وهذا من كلام ابن القيم.

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

وذلك أن المشركين لما انصرفوا راجعين إلى مكة يوم أحد، ندب النبي ﷺ الصحابة إلى الخروج في إثرهم ترهيباً لهم، فخرجوا معه - رضي الله عنهم - حتى بلغوا حمراء الأسد [(١)]، فقدم عليهم ركب وأخبروهم أن المشركين قد أجمعوا الرجعة عليهم ليستأصلوهم، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه، حيث قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فبلغ المشركين أن النبي ﷺ وأصحابه قد خرجوا في إثرهم فخافوا ورجعوا إلى مكة، فأنزل الله هذه الآيات[(٢)].

قال ابن القيم عند قوله - تعالى -: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: "ومن كيد عدو الله - تعالى - أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الآيمان وقد أخبر الله - تعالى سبحانه - عنه بهذا فقال:

---

(١) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة، معجم البلدان ٣٠١/٢.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥٢١/٣، وتفسير البغوي ٣٧٣/١، والصحيح المسند من أسباب النزول ص(٦٦).

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾.

والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه، قال قتادة: يعظمِّهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم"[(١)].

القسم الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من شيء يضر ويؤذي في العادة [(٢)]، كالخوف من عدو أو سبع ونحو ذلك، وهذا النوع جائز ولا يذم صاحبه، ومنه قوله - تعالى - عن موسى - عليه السلام -: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣]، وقوله عن يعقوب - عليه السلام - ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٣]، وقوله - تعالى - لرسوله ﷺ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾ [الكهف: ١٨] [(٣)].

---

(١) إغاثة اللهفان ١١٩/١، وانظر الدر المنثور ١٨٢/٢.

(٢) فإن لم تجر العادة بأنه سبب للخوف فهو مذموم لأنه جبن وضعف في النفس، انظر القول السديد ص(١١٧).

(٣) انظر لما سبق: تيسير العزيز الحميد ص(٣٦١)، وفتح المجيد ص(٢٨١)، والقول السديد ص(١١٥)، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٤٤)، وشرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين ص(٥٦).

أساليب القرآن الكريم في الحث على خوف الله – تعالى – وحده:

لقد حث الله – تعالى – في القرآن الكريم على خوفه وندب عباده إلى ذلك بأساليب متنوعة منها:

١) الأمر الصريح، كما قال – تعالى –: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠].

٢) جعلُ الخوف منه – سبحانه وتعالى – شرطاً في تحقيق الإيمان، كما في – تعالى –: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

٣) الإخبار بأن الخوف من الله – تعالى– من صفات الملائكة التي يحمدون عليها، كما قال – تعالى – ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥]، وقال – تعالى – ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٤) الإخبار بأنه من صفات الرسل – عليهم الصلاة والسلام –، كما قال – تعالى –: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

٥) المدح؛ حيث مدح الله – تعالى – أولياءه الصالحين الذين يخافونه وحده وأثنى عليهم، كما قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا

سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، قال ابن عطية [(١)]: "يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، وهي مرتبة العدل بين الناس، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير الدينوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه"[(٢)].

٦) بشارة الخائفين بالجنة، كما قال - تعالى -: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال - تعالى -: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤١-٤٢].

٧) التأكيد على أن الخائفين هم المنتفعون بالآيات، كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾ [هود: ١٠٣].

٨) الإخبار أن الله - سبحانه وتعالى - يستخلف الخائفين منه ويمكنهم في

---

(١) هو عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن عطية الأندلسي المالكي، القاضي، فقيه، لغوي، مفسر، من مؤلفاته: تفسيره: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي عام ٥٤٢هـ، انظر الأعلام ٢٨٢/٣، ومعجم المؤلفين ٩٣/٥.

(٢) تفسير ابن عطية ١٤٨/٨.

الأرض كما قال – تعالى –: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

الشرك في الخوف:

الخوف المستلزم للعبادة والتعظيم لا ينبغي أن يكون إلا لله فصرفه لغيره شرك أكبر كما تقدم، وهو من أسباب عبادة المشركين للأصنام، ولذلك كانوا يخوفون بها الأنبياء، كما قال – تعالى – عن قوم هود – عليه السلام – أنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

فإن هوداً – عليه السلام – لما دعاهم إلى توحيد الله، وبيّن لهم بطلان الشرك، كذبوه، وردوا دعوته، بل ادعوا أن آلهتهم أصابته بخبل وجنون، لأنه سبها فانتقمت منه، وقالوا لا نحمل أمرك إلا على هذا.

فرد عليهم هود – عليه السلام – مبيّناً أنه واثق غاية الوثوق بأنه لن يصيبه منهم ولا من آلهتهم أي أذىً، وأعلن براءته من شركهم، وتحداهم أن يصيبوه بمكروه مهما عملوا من الحيل، ودبَّروا من الخطط، طالباً منهم ألا ينظروه ساعةً واحدة إن هم قدروا على ذلك، ولكن أنى لهم ذلك والله – تعالى – هو حسبه ونعم الوكيل [1].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٨/٧، وتفسير ابن كثير ٤٦٥/٢، وتفسير السعدي ٤٣١/٣.

وقال – تعالى – عن إبراهيم – عليه السلام – حينما خوفه قومه بآلهتهم الفاسدة لما عابها وأنكر عليهم عبادتها: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

فقد بيّن لهم – عليه السلام – أنه لا يخاف من آلهتهم الباطلة لأنها أصنام جامدة لا تضر ولا تنفع، ثم قال لهم منكراً عليهم متعجباً من حالهم: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾، واعجباً لكم تخوفوني بآلهتكم الباطلة العاجزة الجامدة، وأنتم لا تخافون الله الواحد القهار، حيث تشركون به غيره بغير دليل ولا برهان، ﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾؟!، قال الله – تعالى – حاكماً وفاصلاً بين الفريقين: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، نعم المؤمنون الذين أخلصوا إيمانهم لله فلم يخلطوه بشرك لهم الأمن التام من جميع المخاوف في الدنيا والآخرة، وهم المهتدون الموفقون لكل خير [1].

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٥٧/٢، وتفسير السعدي ٤٢٥/٢.

ولما دعا النبي ﷺ قومه إلى توحيد الله ونبذ الشرك، خوفوه بآلهتهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].

قال ابن كثير: "يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً"(١).

مظاهر الشرك في الخوف:

وقد وقع هذا النوع من الشرك عند كثير من المسلمين، لاسيما في العصر الحاضر، حيث إنهم يخافون من يزعمون أنهم أولياء وصالحون من الأحياء والأموات، بل ويخافون الجن والشياطين كما يخافون الله - تعالى - أو أشد، ويقدمون لهم القربات والنذور مخافة أن يمسوهم بسوء، وبعضهم لا يتورع أن يحلف بالله كاذباً بينما يمتنع أشد الامتناع أن يحلف بغيره من الطواغيت إلا أن يكون صادقاً(٢)، وهذا من جهلهم وسفههم وتلاعب الشيطان بعقولهم، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص(٣٦٢).

المطلب الثالث: شرك التوكل

التوكل[١] على الله – تعالى – وحده في جلب المنافع ودفع المضار والاعتماد عليه في جميع الأمور كبارها والصغار، من أعظم أنواع العبادة، وأبرز علامات الإيمان والطاعة، ولذلك يجب إخلاصه لله – تعالى – وحده.

"وحقيقة التوكل هو: صدق اعتماد القلب على الله – عزوجل – في استجلاب المصالح ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكِلَةُ الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه"[٢].

أقسام التوكل على غير الله:

التوكل على غير الله – تعالى – له أقسام ثلاثة، هي:

القسم الأول: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمغفرة الذنوب، وشفاء المريض، وتفريج الكروب، ونحو ذلك، وهذا شرك أكبر.

القسم الثاني: التوكل على غير الله في الأمور التي أقدره الله عليها، كمن يتوكل على شخص في الحصول على رزقه، أو دفع أذى الناس عنه، وهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، نظراً لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه [٣].

القسم الثالث: التوكل[٤] الذي هو بمعنى الإنابة، وذلك أن ينيب الإنسان

---

(١) التوكل لغة: الاعتماد، انظر المفردات ص(٨٨٢)، و لسان العرب ٤٩١٠/٨.

(٢) جامع العلوم والحكم ص(٥٢٨).

(٣) انظر شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين ص(٥٥).

(٤) قال ابن قاسم: لكن لا تقول توكلت عليه، بل وكّلته، فإنه ولو وكته فلابد أن يتوكل في ذلك على الله، حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٥١).

غيره فيما يقدر عليه كبيع وشراء ونحو ذلك، وهذا جائز ولا ينافي التوكل على الله – تعالى – [١].

أساليب القرآن في الحث على التوكل على الله – تعالى – وحده:

لقد حث الله – تعالى – في القرآن الكريم على التوكل عليه وحده، وأمر بذلك في آيات كثيرة وبأساليب متنوعة منها:

١) الأمر الصريح، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وتقديم المعمول – لفظ الجلالة – يفيد الحصر، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل [٢]، وقال – تعالى –: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

"وهذه الآية فيها الأمر بالتوكل على الله، وأردف هذا الأمر بما هو الموجب للتوكل والمصحح له، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾، فإن العبد إذا اتبع الحق وسار عليه كان مقتضى ذلك تحقيق مقام التوكل على الله – عز وجل – والاكتفاء به والإيواء إليه دون سواه، فإنه – تعالى – هو الحق وهو ولي الحق وناصره وكافي من قام به..."[٣].

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٣٧٣)، وفتح المجيد ص(٢٩٠)، وشرح ثلاثة الأصول لابن عثمين ص(٥٤).

(٢) قرة عيون الموحدين للشيخ عبدالرحمن بن حسن ص(١٧١).

(٣) مباحث العقيدة في سورة الزمر ص(٢٧٦).

٢) جعلُ التوكل عليه – سبحانه –شرطاً في الإيمان والإسلام كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[يونس: ٨٤].

قال ابن القيم عند هاتين الآيتين: "فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى جعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل"(١).

٣) جعلُ التوكل على الله – تعالى – من أخص صفات المؤمنين الصادقين، قال – تعالى –: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال: ٢].

قال ابن عباس عند هذه الآية: "المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين..."(٢).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: "في الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان، وحصول أعماله الباطنة

(١) طريق الهجرتين ص(٤٦٠) بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن جرير ١٧٨/٦.

والظاهرة"[١].

٤) الإخبار بمحبة الله – تعالى – لمن توكل عليه، قال – تعالى –: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وأي فضل أعظم من محبة الله – تعالى – للعبد؟.

٥) الإخبار بكفاية الله – تعالى – لمن توكل عليه، قال – تعالى –: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن كان الله – تعالى – كافِيَه وحافظه وراعيه فإنه لا مطمع فيه لعدو غشوم ولا منفذ إليه لجبار ظلوم، ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وأصحابه بعد أُحد أن المشركين قد عزموا على الرجوع إليهم ليستأصلوهم فوضوا أمرهم إلى الله ولجأوا إليه وحده، حيث قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فكانت النتيجة أن رد الله كيد المشركين في نحورهم وألقى في قلوبهم الرعب ففروا هاربين إلى مكة، وأما المسلمون ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤][٢].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل"قالها إبراهيم – عليه السلام – حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٣].

---

(١) فتح المجيد ٢٩١.

(٢) وتقدم ذكر القصة في ص(٨٩).

(٣) أخرجه البخاري ٨/٢٢٩ ح(٤٥٦٣).

٦) الجمع بين التوكل عليه وبين العبادة، وبينه، وبين الإيمان، وبينه وبين التقوى، وبينه وبين الإسلام، وبينه وبين الهداية، وماذاك إلا لبيان منزلته من هذا الدين، وعلو مرتبته، وتأكيد أهميته.

فأما الجمع بينه وبين العبادة فكما في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

وفي الجمع بين العبادة والتوكل دليل على أنه لا يمكن تحقيق العبودية الواجبة لله – تعالى – إلا بالاستعانة به والتوكل عليه.

وأما الجمع بين التوكل والإيمان فكما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩].

وأما الجمع بين التوكل والتقوى فكما في قوله – تعالى –: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام فكما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بينه وبين الهداية فكما في قوله – تعالى – على لسان رسله – عليهم الصلاة والسلام –: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

مظاهر الشرك في التوكل:

التوكل عبادة من أجلّ العبادات وأعظمها، وهو من أعمال القلوب، فلا يجوز صرفه لغير الله – تعالى –، ولهذا أمر الله – تعالى – بالتوكل عليه وحده دون ما سواه، بل أمر – سبحانه – رسوله ﷺ الذي هو أشرف الخلق وأكملهم إيماناً بالتوكل عليه وحده في تسعة مواضع من القرآن الكريم.

وقد وقع هذا النوع من الشرك عند كثير من المسلمين، حيث يتَّكلون على غير الله من الطواغيت والشياطين وأصحاب القبور في جلب أرزاقهم وشفاء مرضاهم وتفريج كرباتهم، وهذا شرك أكبر مخرج من الملة كما تقدم، كما أن بعض المسلمين يعتمد في تحصيل رزقه على ما يأتيه من رَزْق [١]، أو غَلَّة[٢]، أو كسب ضَيْعَة [٣]، ويظن أنه متى ما انقطع عنه ذلك فإنه سيجوع ويفتقر، ومن هذا الباب ما يزعمه بعض المنتسبين إلى الإسلام من أن خيرات الأرض وثمارها لن تفي بحاجات الناس بعد سنوات معدودة، ولذلك ينبغي تحديد النسل أو قطعه، فهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، وقد يصل إلى الشرك الأكبر بحسب نية صاحبه وقصده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه شرك، ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ

(١) الرَزْق: العطاء الجاري، المعجم الوسيط ٣٤٢/١.

(٢) الغلَّة: الدَّخل من كراء أرض أو رَيْع أرض، المعجم الوسيط ٦٦٠/٢.

(٣) الضَّيْعَة: الحرفة والصناعة، المصباح المنير ص(٨٩).

ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾[الحج: ٣١] [(١)].

تعقيب:

التوكل على الله – تعالى – لا ينافي فعل الأسباب، فإن التوكل نفسه من أقوى الأسباب في تحصيل المنافع ودرء المضار، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والفطرة والعقل، وليس هذا مقام تفصيل ذلك وبيانه، وقد أمر الله – تعالى – في كتابه باتخاذ الأسباب، فقال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[البقرة: ١٩٧].

وقد نزلت هذه الآية في أهل اليمن، فإنهم كانوا يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله – تعالى – هذه الآية، أخرجه البخاري [(٢)(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٥٧/١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٣/٣ ح(١٥٢٣).

(٣) انظر رسالة الشرك الأصغر ص(١٣٩) وما بعدها.

المطلب الرابع: الــرياء

الرياء[١] داء خطير، ومزلق كبير، ومدخل من مداخل الشيطان دقيق.

"و هو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها، وإنما يبتلي به العلماء، والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة؛ فإنهم مهمـــا قهـــروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات، وحملوهـــا بالقهر على أصناف العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير، وإظهـــار العمـــل والعلم، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظـــرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصـــلت إلى اطـــلاع الخلق و لم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس، و لم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات، وتوقيه الشـــبهات، وتحملـــه مشـــاق العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء، ونظـــروا إليه بعين التوقير والاحترام... فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللـــذات وشهوة هي أغلب الشهوات... فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دَرَكِها العقول النافذة القوية، ويرى أنه

---

(١) الرياء لغة: قال فيه الفيروز آبادي: "رائيته مراءاة ورياء أريته خلاف ما أنا عليه"بصائر ذوي التمييز ١١٦/٣.

وشرعاً: إظهار العبادة للناس لكي يروها فيحمدوا صاحبها، والفرق بين الرياء والسُّمعة، أن الرياء العمل من أجل رؤية الناس، والسمعة العمل من أجل سماعهم. انظر فتح الباري لابـــن حجـــر ٣٣٦/١١.

مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة..."[١].

أساليب القرآن الكريم في النهي عن الرياء:

لقد نهى الله – تعالى – في القرآن الكريم عن الرياء، وذم المرائين بأساليب متنوعة منها:

١) النهي عنه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ففي هذه الآية يأمر الله – تعالى – كل من يرجو لقاءه[٢] – وذلك أعظم مرجو وخير مطلوب – أن يتزود لذلك بالعمل الصالح وهو الموافق للشرع، المطابق للسنَّة، وأن يخلص هذا العمل لله وحده، فلا يرائي به أحداً من الناس.

قال ابن جرير: "وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ يقول: ولا يجعل له شريكاً في عبادته إياه، وإنما يكون جاعلاً له شريكاً بعبادته إذا رآى بعمله الذي

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢.

(٢) والمقصود به هنا لقاء الرضاء والنعيم والمتضمن رؤيته سبحانه، انظر القول المفيد ٢/٢٢٩.

ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره"[١].

وقال الفضيل بن عياض[٢] عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾... الآية [٣].

فالإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ هما ركنا العمل المقبول وشرطا العبادة الصحيحة.

٢) الإخبار بأنه من صفات المنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

قال ابن كثير: "أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقيةً لهم، ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٩٩/٨.

(٢) هو أبوعلي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، ثقة، زاهد، ولد في سمرقند، وجاور في مكة وبها توفي عام ١٨٧هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٢١/٨، والأعلام ١٥٣/٥.

(٣) انظر مدارج السالكين ٩٣/٢.

غالباً كصلاة العشاء وقت العَتَمة [١]، وصلاة الصبح في وقت الغلَس [٢]، كما ثبت في الصحيحين"[٣] [٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: ٣٨].

فالمنافقون إنما ينفقون أموالهم لكي يراهم الناس فيمدحوهم ويصفوهم بالجود والسخاء، لا يبتغون بذلك وجه الله، فالرياء هو ديدنهم، وبغيتهم، وأصل دينهم.

٣) وعيد المرائين بالويل والعذاب الأليم، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧].

ففي هذه الآيات يتوعد الله الذين يراؤون بصلاتهم بالويل، وهو واد في جهنم[٥]، مع أنهم يؤدون الصلاة، ولكنهم لّما كانوا لا يؤدونها مخلصين لله، بل مراءاة للناس لم تنفعهم، فكأنهم لم يؤدوها بالكلية، ولذلك أخبر الله عنهم أنه

---

(١) العَتَمة: الثلث الأول من الليل بعد مغيب الشفق، مختار الصحاح ص(١٧٣).

(٢) الغَلَس: ظلمة آخر الليل، مختار الصحاح، ص(٢٠٠).

(٣) صحيح البخاري ١٤١/٢ ح(٦٥٧)، وصحيح مسلم ٤٥١/١ ح(٦٥١).

(٤) تفسير ابن كثير ٥٨١/١.

(٥) قاله بعض السلف، ورُوي مرفوعاً، وفيه أقوال أخرى، انظر تفسير البغوي ٨٨/١.

ساهون عن صلاتهم مضيعون لأوقاتها مخلون بأركانها [١].

وقال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٨٨].

قال ابن كثير: "يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا"[٢].

وعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ ﴾[٣].

فهذه الآية فيها وعيد شديد للمرائين الذين يحبون أن يمدحوا على الطاعات التي لم يفعلوها.

٤) الإخبار بزوال عمل المرائي واضمحلاله وبطلانه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٥٩٣/٤، وتفسير السعدي ٦٧٧/٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٦/١.

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٣/٨ ح(٤٥٦٧)، و مسلم ٢١٤٢/٤ ح(٢٧٧٧).

يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذه الآية الكريمة يصف الله عمل المرائي بالصدقة بالحجر الأملس الذي نزل عليه مطر شديد فأزال ما عليه من التراب، فأصبح أملسَ يابساً ليس عليه شيء، فلا ينبت ولا يصلح للزراعة، فكذلك عمل المرائي يذهب ويضمحل، وإن ظهر للناس وعلموا به، لأن العبرة بما يبقى عند الله حيث يجده صاحبه كاملاً موفَراً أحوج ما يكون إليه [١].

وكما حذر الله – تعالى – من الرياء وذم المرائين فقد حذر النبي ﷺ أمته من الرياء، وخافه عليهم خوفاً شديداً[٢] حتى جعله أخوف عليهم عنده من المسيح الدجال [٣]، وأخبر أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة هم المراؤن[٤].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣٢٦/١، والتفسير المنير ٤٦/٣.

(٢) كما في حديث محمود بن لبيد ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء))، أخرجه أحمد ٤٢٨/٥، وقال المنذري: إسناده جيد، الترغيب والترهيب ٦٨/١ ح(٢٣)، وحسن إسناده ابن حجر في بلوغ المرام، انظر بلوغ المرام مع شرحه سبل السلام ٣٥٥/٤ ح(٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١٧/١ ح(٢٩).

(٣) كما في حديث أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً: ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: الشرك الخفي: أن يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل))، أخرجه أحمد ٣٠/٣، وابن ماجه ١٤٠٦/٢ ح(٤٢٠٤)، وهذا لفظه، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٩٦/٣، والألباني في صحيح الترغيب ١٧/١ ح(٢٧).

(٤) كما في حديث أبي هريرة المشهور قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...)) الحديث، أخرجه مسلم ١٥١٣/٣ ح(١٩٠٥).

أقسام الرياء:

القسم الأول: الرياء في أصل العبادة، وهو أن يكون الحاملُ للعبد على العبادة قصدَ مراءاة الناس، فهذا العمل باطل، وهو شرك أصغر، فإن قلب نيته إلى إرادة الثواب، أو كان الحامل له على العبادة الإخلاص ثم طرأ عليه الرياء في أثنائها، صح ما أخلص فيه فيها إن لم ينبن آخرها على أولها كالصدقة، وبطلت إن كان ينبني آخرها على أولها كالصلاة [١].

القسم الثاني: أن يكون الباعث على العبادة إرادة الثواب والرياء معاً، فهذه العبادة باطلة على الراجح، لحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله – تبارك وتعالى –: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)) [٢].

القسم الثالث: أن يكون بعد الفراغ من العبادة، وذلك بأن ينوي العبادة مخلصاً لله فيها ثم يخبر بها الناس مراءاةً لهم وطلباً لمدحهم وثنائهم، فهذا العمل محرم، لحديث جندب بن عبد الله البجلي – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سمّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) [٣]، ولا تبطل به العبادة، لأنه أداها مخلصاً فيها لله – تعالى –.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته وثنائهم على ذلك

---

(١) لكن يستثنى من ذلك ما إذا خطر الرياء على قلب الإنسان فدافعه وتخلص منه فإنه لا شيء عليه، انظر القول السديد ص(١٢٨).

(٢) أخرجه مسلم ٤/٢٢٨٩ ح(٢٩٨٥).

(٣) أخرجه البخاري ١١/٣٣٥ ح(٦٤٩٩)، و مسلم ٤/٢٢٨٩ ح(٢٩٨٧).

استبشاراً بفضل الله، وسروراً بتوفيقه لهذه العبادة التي أداها مخلصاً لله مبتغياً فيها وجهه مبتعداً عن أسباب الرياء ودواعيه، لحديث أبي ذر – رضي الله عنه – قال: قيل لرسول الله ﷺ: ((أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه – وفي رواية: ويحبه الناس عليه – قال: تلك عاجل بشرى المؤمن)) [١][٢].

مظاهر الرياء:

للرياء مظاهر عديدة، ومسالك دقيقة، وصور كثيرة، وقلَّ من ينجو منه، لاسيما في هذه الأزمان التي ضعف فيها خوف الله – تعالى –، وعزت فيها مراقبته، وأُشربت القلوب مدح الناس، والتزيّن لهم، وطلب ثنائهم وإعجابهم، والحرص على نيل رضاهم وإطرائهم، وقد كان السلف – رحمهم الله تعالى – يخافون خوفاً شديداً من الوقوع في الرياء، ويحرصون أشد الحرص على إخفاء أعمالهم الصالحة [٣].

ومن صور الرياء الخفية أن يحب العابدُ أن يبدأه الناس بالسلام، ويقدروه، ويقدموه في المجالس، ويسعوا في قضاء حوائجه، ويثنوا عليه، ويغضب ويتضايق إذا قصروا في شيء من ذلك، ومن صوره الدقيقة أيضاً أن يذم الإنسان نفسه أمام الناس ليريهم أنه متواضع فيرتفع بذلك ويُمدح به [٤].

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٠٣٤ ح(٢٦٤٢).

(٢) انظر إحياء علوم الدين ٣/٣٠١، وجامع العلوم والحكم ص(١٨)، والقول السديد ص(١٢٨)، والقول المفيد ٢/٢٢٧، ورسالة الشرك الأصغر ص(٨١)، ومقاصد المكلفين للدكتور عمر الأشقر ٢/١٠١.

(٣) انظر شرح حديث: ((ما ذئبان جائعان)) لابن رجب ص(٦٧).

(٤) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ٣/٣٠٥، والإخلاص والشرك الأصغر ص(١٠).

ومما ينبغي التنبيه عليه أنه لا يجوز ترك العمل خوفاً من الرياء، بل هذا هو عين الرياء، كما قال الفضيل بن عياض: "ترك العمل لأجل الناس هو الريـــاء، والعمل من أجل الناس هو الشرك"[١].

وختاماً: ينبغي أن يجاهد المرء نفسه على التخلص منه ومدافعته، وتربيتـــها على إخلاص الأعمال والأقوال لله – تعالى –، والإكثار من اللَّهج[٢] بهذا الدعاء النبوي: ((اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لمـــا لا نعلمه)) [٣].

---

(١) حلية الأولياء ٨/٩٥.

(٢) اللهج بالشيء: الولوع به، والمثابرة عليه واعتياده، انظر مختار الصـــحاح ص(٢٥٣)، والمعجـــم الوسيط ٢/٨٤١.

(٣) لحديث أبي موسى الأشعري ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم: ((يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقال له من شـــاء الله أن يقـــول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه))، أخرجه أحمد ٤/٤٠٣، وحسنه الألبـــاني في صـــحيح الترغيب ١/٩١ ح(٣٣).

المطلب الخامس: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

إن العبادة بجميع أنواعها الاعتقادية والقولية والعملية يجب أن تكون خالصة لله – تعالى – كما أمر الله بذلك في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة، و لا يجوز للإنسان أن يعمل العمل الصالح يريد به حظاً من حظوظ الدنيا الفانية، بل إن ذلك شرك ينافي كمال التوحيد، ويحبط العمل، كما تقدم في المطلب السابق.

والفرق بين الرياء وإرادة الإنسان بعمله الدنيا هو أن"بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس وطلب المِدحة منهم والإكرام، ويفارقه[١] الرياء بكونه[٢] عمل عملاً صالحاً، أراد به عرضاً من الدنيا كمن يجاهد ليأخذ مالاً"[٣].

أساليب القرآن الكريم في النهي عن إرادة الدنيا بالعمل الصالح:

لقد ذم الله – تعالى – في القرآن الكريم الذين يريدون بأعمالهم الصالحة

---

(١) أي يفارق إرادةَ الإنسان بعمله الدنيا.

(٢) أي إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

(٣) فتح المجيد ص(٣١٠)، والظاهر أن الريا متعلق بذوات البشر، أي الحصول على مدحهم وإعجابهم، وإرادة الإنسان بعمله الدنيا متعلق بالمنفعة الدنيوية بغض النظر عن مدح الناس وذمهم.

متاعَ الدنيا القليل، وعرضها الفاني، وذلك بأساليب متعددة منها:

١- الوعيد لمن قصد بعمله الحياة الدنيا، وأعرض عن الآخرة، ولم يقدم لها شيئاً، كما في:قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[هود: ١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾[الإسراء: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾[الشورى: ٢٠].

ففي هذه الآيات الكريمة يتوعد الله – تعالى – الذين يريدون بأعمالهم الصالحة متاعَ الدنيا القليل الفاني فحسب، ولم يكن لهم عملٌ للآخرة بالنار، ويخبر – سبحانه- أنه ليس لهم في الآخرة من نصيب، وأنهم وإن نالوا شيئاً من حظوظ الدنيا، فإنما هو شيء قد كتبه الله لهم [(١)]، ثم مآلهم إلى جهنم وبئس المصير، وهذا الوعيد وإن كان وارداً فيمن كان كلُّ همِّه ومقصده الحياةَ الدنيا، ولم يرد الله – تعالى – بشيء من عمله الصالح – وهذا لا يصدق إلى على

(١) بدلالة آية الإسراء: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ فإنها مقيدة للآيتين الأخريين كما ذكر ابن كثير في تفسيره ٤/١٢٠.

الكافر [١]، فإنه يدخل في عمومه المؤمن الذي يعمل العمل الصالح يبتغي به عرضاً من أعراض الدنيا.

٢- الإخبار عن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – أنهم لم يطلبوا من أقوامهم أجرا على دعوتهم إياهم إلى وتبليغهم رسالته، وإنما أجرهم على الله وحده، كما قال – سبحانه – عن نوح – عليه السلام -: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

وقال عن هود – عليه السلام -: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:٥١]

وقال عن صالح- عليه السلام - ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٤٥]

وقال عن شعيب – عليه السلام -: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٨٠]

وقال عن لوط –عليه السلام-: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٤].

---

(١) وقال بعض المفسرين هو في المؤمن يريد بعمله الدنيا، انظر زاد المسير ٤/٧٠.

وذكر - سبحانه - عن صاحب القرية أنه قال لقومه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:٢١].

وقال عن نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤].

٣- أمرُ الله – تعالى – لنبيه محمد ﷺ أن يقول لقومه: لا أسألكم على دعوتي أجراً دنيوياً، كما قال – تعالى -: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠]. وقال - سبحانه-: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ:٤٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وكما ذم الله - تعالى - مريدي الدنيا وتوعدهم، كذلك ذمهم النبي ﷺ ودعا عليهم، وسماهم عبيداً لها كما في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ((تعس[١] عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة [٢]، تعس عبد الخميلة[٣]، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس [٤]، وإذا شيك فلا انتقش [٥]، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل

(١) تعس: سقط، والمراد به هنا: هلك.
(٢) الخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلّم.
(٣) الخميلة: القطيفة، وهو كل ثوب له خَمْل، وقيل: الخميل الأسود من الثياب.
(٤) انتكس: انقلب على رأسه بعد أن سقط.
(٥) وإذا شيك فلا انتقش: أي إذا أصابته شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش.

الله، أشعثٍ رأسه، مغبرةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة[١] كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)) [٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، وذكر ما فيه وهو دعاء وخبر، وهو قوله: ((تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش))، والنقش إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما يخرج به الشوكة، وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، و لم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلُص من المكروه، وهذه حال عبد المال، وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي، وإن منع سخط، كقوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨]، فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برئاسة أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده - إلى أن قال -: وهكذا أيضا حال من طلب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقُّه"[٣].

أقسام إرادة الإنسان بعلمه الدنيا:

القسم الأول: ألا يريد بعمله الصالح إلا الدنيا، فهذا العمل باطل، محرم، وهو شرك أصغر.

---

(١) السَّاقة: جمع سائق، وهم الذين يسوقون جيش الغزاة، ويكونون من ورائه يحفظونه، انظر والنهاية ٨١/٢، ٤٢٤، وفتح الباري ٢٥٤/١١.

(٢)أخرجه البخاري ٨١/٦ ح(٢٨٨٧).

(٣) الفتاوى ١٨٠/١٠ وما بعدها.

القسم الثاني: أن يريد بعمله وجه الله – تعالى – والدنيا معاً، فهذا عمله صحيح لكنه ناقص لعدم تحقيق الإخلاص الواجب، فإن غلب قصد الدنيا فهو باطل.

القسم الثالث: أن يعمل العمل مخلصاً فيه لله – تعالى –، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، وإنما يريده في الدنيا، وذلك بأن يجازيه الله بحفظ ماله وأهله، وإدامة النعمة عليه، ونحو ذلك، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، ولا يأثم بذلك، لأنه أراد الأجر من الله وحده [١].

وليس من إرادة الدنيا التشريك في بعض العبادات، كمن يحج ويتاجر، ويجاهد في سبيل الله ليحصل على الأجر والغنيمة، لأن الله – تعالى – أباح ذلك[٢].

مظاهر إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

إرادة الدنيا بالأعمال الصالحة له مظاهر كثيرة منها الجلي ومنها الخفي، فمن ذلك أن يعمل الإنسان العمل الصالح من أجل أن يصيب به مالاً أو منصباً، أو زوجة ينكحها، ومن ذلك أن يتعلم العلم الشرعي ليصيب به عرضاً من أعراض الدنيا كالمال والجاه والمنصب، ومن ذلك أن يترك بعض المحرمات حفاظاً على صحته كأن يترك الفواحش والمسكرات ونحو ذلك خوفاً من أعراضها وأضرارها الصحية، ونحو ذلك.

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص(٤٠٤)، والقول السديد ص(١٢٩)، ورسالة الشرك الأصغر ص(١٠٥).

(٢) انظر الفروق للقرافي ٢٢/٣، والإخلاص والشرك الأصغر ص(٢٠).

المطلب السادس: الطِّـيَرَة

تعريف الطيرة:

قال ابن الأثير[١]: "الطِّيَرَة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن: هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطيَّر، يقال: تطيَّر طِيَرَة، وتخيَّر خيَرَة، ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما.

وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح [٢]، من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضر..."[٣].

وقال في صبح الأعشى: "الزجر والطيرة وهما في معنى واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير، فإن طار يميناً كان له حكم، وإن طار شمالاً كان له حكم، وإن طار أماماً كان له حكم، وإن طار فوق رأسه كان له حكم، ومن ثمَّ سميت الطِّيرة أخذاً من اسم الطير، وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب، ثم تعدَّوا إلى غير الطير من الحيوان، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك، وربما انتهى

---

(١) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني، الجَـزَري، المحدث، اللغوي، الأصولي، من تصانيفه: النهاية في غريب الحديث، وجامع الأصول في أحاديث الرسول، توفي عام ٦٠٦هـ في الموصل، انظر الأعلام ٢٧٢/٥، معجم المؤلفين ١٧٤/٨.

(٢) السانح: ما ولاك يمينه من الطير، والبارح: ما ولاك مياسره، وكانت العرب تتيمن بالسانح، وتتطير بالبارح، انظر النهاية لابن الأثير ١١٤/١.

(٣) النهاية ١٥٢/٣.

بعض الزجر إلى حد الكهانة"[١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "هي التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، والبقاع وغيرها"[٢].

وقد أبطلها الإسلام، وأخبر النبي ﷺ أنها شرك [٣]، لأنها تعلق بغير الله، فهي تنافي كمال التوكل على الله - وحده -، قال ابن حجر: "وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً، فكأنهم أشركوا مع الله - تعالى -"[٤].

الطيرة في القرآن الكريم:

ذكر الله - تعالى - الطيرة في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وكلها صادرة عن المشركين المكذبين لدعوات الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، ولذلك ذمهم الله - تعالى - وكذب دعواهم، وأبطل شبهتهم، وإليك بيان هذه المواضع:

الموضع الأول: تطير ثمود بنبيهم صالح - عليه السلام - كما ذكر الله

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ٣٩٩/١.

(٢) القول السديد ص(١٠١).

(٣) كما في حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: ((الطيرة شرك))، أخرجه أحمد ٣٨٩/١، وأبوداود ٢٣٠/٤ ح(٣٩١٠)، والترمذي ١٣٨/٤ ح(١٦١٤)، وقال: حسن صحيح، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه للمسند ٢٥٢/٤ ح(٣٦٨٧).

(٤) فتح الباري ٢١٣/١٠.

ذلك عنهم في سورة النمل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل: ٤٥-٤٧].

ففي هذه الآيات يخبر الله – تعالى – أنه أرسل إلى قبيلة ثمود أخاهم في النسب صالحاً – عليه السلام –، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك والأوثان، فانقسموا إلى فريقين كل منهما يجادل الآخر ويخاصمه، فريق مؤمن مصدق، وفريق مشرك مكذِّب وهم الأكثرون، ولذلك قال لهم صالح – عليه السلام –: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ لم تبادرون بفعل السيئات الموجبة لعقوبة الله وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات الموجبة لرحمة الله وتوبته، فهلاّ تستغفرون الله وتتوبون إليه من كفركم وتكذيبكم لعله أن يرحمكم ويعفو عنكم، فلم ينفعهم هذا الوعظ والتذكير، بل تمادوا في غيهم وعنادهم حتى أعلنوا – قبحهم الله – تشاؤمهم من نبيهم صالح – عليه السلام – ومن آمن معه، وزعموا أنهم هم السبب فيما أصابهم من الجوع والقحط والبلاء، حيث ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾، فرد عليهم صالح – عليه السلام – قائلاً: ﴿ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، أي: ما أصابكم من المكاره إنما هو من الله – تعالى –، أنزله بعلمه وحكمته، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾، أي: تختبرون

وتمتحنون بالسراء والضراء ليعلم الله المؤمنين الصادقين فيثيبهم الثواب الجزيل، ويعلم الكافرين المكذبين فيعاقبهم العقاب الأليم [١].

الموضع الثاني: تطير قوم فرعون بموسى – عليه السلام –، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١].

فقد أرسل الله – تعالى – موسى – عليه السلام – إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك، فأعرض عن هذه الدعوة واستكبر هو وجنوده بغير الحق، وتمادى في غيه وطغيانه حتى ادعى الربوبية ودعا الناس إلى عبادة نفسه من دون الله، فلما كان هذا موقفه وقومه من دعوة موسى – عليه السلام – ابتلاهم الله بالقحط والجوع ونقص الثمرات لعلهم يتعظون فيؤمنون، ولكن لم يزدهم ذلك إلا عناداً وكفراً واستكباراً، فكانوا إذا جاءتهم الحسنة من الخصب والغنى والعافية قالوا: لنا هذه فنحن مستحقون لها، وإذا أصابتهم السيئة من الجوع والقحط والبلاء تشاءموا بموسى ومن آمن معه، وادعوا أن ما أصابهم كان بسبب موسى واتباع بني إسرائيل له، قال الله –تعالى– مبطلاً مقولتهم ذاماً لحالهم: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٥٣٠/٩، وتفسير ابن كثير ٣٧٩/٣، تفسير السعدي ٥٨٣/٥.

﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما أصابهم من البلاء والمكاره إنما هو من الله - وحده -، أنزله بقضائه وقدره بسبب ما كسبته أيديهم، ولا شأن لموسى وقومه به، ولكنهم قوم جهلة، وإلا فإن موسى ومن آمن معه سبب لنزول الخيرات والبركات لما معهم من الإيمان والتقوى [١].

قال البيضاوي [٢]: "هذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك[٣] وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهي لم تؤثر فيهم، بل ازدادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي"[٤].

الموضع الثالث: تطير أهل القرية برسل الله - عليهم السلام -، كما حكى الله - تعالى - ذلك عنهم في سورة يس~، فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٩/٦، وابن كثير ٢٤٩/٢، والسعدي ٨٠/٣.

(٢) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي القاضي، مفسر أصولي، من تصانيفه: تفسيره المسمى أنوار التنزيل، ومنهاج الوصول في علم الأصول، توفي عام ٦٨٥هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٢٤٢/١، والأعلام ١١٠/٤.

(٣) العرائك: جمع عريكة وهي الطبيعة، وفلان ليِّن العريكة: أي سلس، مختار الصحاح ص(١٨٠).

(٤) تفسير البيضاوي ٣٥٦/١.

لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[يس: ١٣-١٩].

ففي هذه الآيات يأمر الله – تعالى – نبيه محمداً ﷺ أن يضرب لقومه مثلاً في أصحاب القرية رجاء أن يعتبروا بهم فيؤمنوا، وذلك أن قرية من القرى كان أهلها على الشرك، فبعث الله إليهم رسولين[١] يدعوانهم إلى عبادة الله وحده، فكذبوهما وأنكروا رسالتهما، فقواهما الله – تعالى – بثالث، فلم ينفع ذلك أهل القرية بل استمروا في ضلالهم، متذرعين بالشبهة التي طالما رددها أهل الشرك ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾، و لم يقفوا عند هذا الحد، بل أنكروا جميع الرسالات، حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ فما كان من الرسل – عليهم السلام – إلا أن أكَّدوا صدق رسالتهم بالأيمان، وأخبروهم أن مهمتهم البلاغ، وأما الهداية فهي بيد الله – تعالى –، و لم يكتف أصحاب هذه القرية بتكذيب رسل الله ورد دعوتهم، بل تشاءموا بهم، وادعوا أنهم سبب شر ونذير هلاك، قال قتادة: "قالوا: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم"[٢]، وقال مجاهد: "يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب

(١) وقد اختلف المفسرون في هذه القرية وفي هؤلاء الرسل، هل هم من عند الله، أو هم رسل أرسلهم المسيح عيسى ابن مريم ـــ عليه السلام ـــ؟ فذهب أكثر المفسرين إلى أن القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الرسل الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح ـــ عليه السلام ـــ، واختار ابن كثير أن القرية ليست أنطاكية المعروفة، وأن هؤلاء الرسل أرسلهم الله ـــ عزوجل ـــ، وليسوا من جهة المسيح – عليه السلام –، انظر تفسير ابن كثير ٥٧٦/٣، وتفسير ابن جرير ٤٣٠/١٠.

(٢) تفسير ابن جرير ٤٣٢/١٠.

أهلها"[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: "وهذا من أعجب العجائب أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد، وأجلّ كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه"[٢].

ثم توعدوا رسلهم – عليهم السلام – بقتلهم رجماً بالحجارة إن لم ينتهوا عن دعوتهم إلى التوحيد.

فرد عليهم الرسل قائلين: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ شؤمكم فيكم بسبب ما معكم من الشرك والمعاصي الموجبة لحلول المصائب والنقم، ولكنكم قوم مسرفون في الضلال والعناد، حيث نسبتم إلينا ما لا يليق بنا حينما ذكرناكم وأنذرناكم [٣].

الموضع الرابع: تطير الكفار برسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٧٥.

(٢) تفسير السعدي ٦/٣٣٩.

(٣)انظر تفسير ابن جرير ١٠/٤٣٠، وتفسير ابن كثير ٣/٥٧٤، وتفسير السعدي ٦/٣٣٧.

﴿أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

ففي هذه الآيات يخبر الله – تعالى – عن المكذبين لرسوله ﷺ[١] بأنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة من الخصب والرخاء والعافية قالوا هذه من عند الله أنزلها برحمته وتقديره، وإذا أصابتهم السيئة من البلاء والجدْب قالوا متشائمين: هذه من قبلك بسبب دينك، وسوء تدبيرك، فأمر الله – تعالى – نبيه أن يقول لهؤلاء الجهال الضلال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فكل ما يصيب الإنسان من رخاء وشدة، ونعمة ونقمة إنما هو من عند الله أنزله بقدرته وعلمه وحكمته، ولكن هؤلاء القوم أناس جهلة لا يعلمون حقيقة الرسالة ولا يفهمون معاني الكتاب.

ثم بيّن – تعالى – لرسوله ﷺ[٢] أن كل ما يصيبه من رخاء، ونعمة، وعافية إنما هو من فضله – سبحانه – ونعمته وإحسانه ومنّته، وما أصابه من شدة وبلاء ومحنة فإنما هو بسبب ذنبه وكسبه، ويعفو عن كثير، وفي ختام الآية شهد الله – تعالى – لنبيه بالرسالة، وكفى به – سبحانه – شهيداً، فلن يضره بعد ذلك جحود الكافرين ولا شُبه المبطلين [٣].

---

(١) وقد اختلف في مرجع الضمير في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ فقيل: هم المنافقون واليهود، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هم اليهود، انظر زاد المسير ١٥٦/٢.

(٢) وأمته داخلون معه في هذه الخطاب.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١٧٦/٤، وتفسير ابن كثير ٥٤٠/١، وتفسير السعدي ١٠٧/٢، وشفاء العليل ص(٢٦٩)، وما بعدها.

الشرك في الطيرة:

الطيرة عادة من عادات الجاهلية، ومرض من أمراض الأمم الشركية، والمتطير لا يخلو من حالين:

إحداهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازماً على فعله أو يفعل ما كان عازماً على تركه، فهذا تعلق بغير الله، وإخلال بالتوحيد، ونقص في التوكل، فهو شرك أصغر.

الثانية: أن لا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهمّاً، وهذا أهون من الأول، ولكنه نقص في التوكل، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، لكن لا يؤاخذ عليه الإنسان لحديث معاوية بن الحكم - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله: ((ومنا رجال يتطيرون، فقال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم))، [١].[٢]

فعلى المسلم أن يَكِلَ أمره إلى الله، ويعتمد عليه، ولا يلتفت إلى ما يلقيه الشيطان في صدره من الوساوس والأوهام، فإن وقع في قلبه شيء من الطيرة فإن كفارة ذلك أن يقول: ((اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)) [٣].

---

(١)أخرجه مسلم ٣٨٢/١ ح(٥٣٧).

(٢) انظر القول السديد ص(١٠٢)، وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٢٢١)، والشرك الأصغر ص(١٣٣)، ودليل الفالحين ١٧٧/٣.

(٣) لما روى أبوداود عن عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم، فقال: أحسنها الفأل، ولا يَرُدُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل:...)) الحديث، أخرجه ==

وليس من الطيرة الفأل، بل هو مستحب ومحمود، وهو الكلمة الطيبة يسمعها المؤمن فيسر بها ويزداد طمعاً في تحصيل ما عزم على فعله وإقبالاً عليه، وذلك لما روى أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: ((لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: كلمة طيبة)) [(١)].

والفرق بينهما أن الفأل الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه المصلحة والنشاط والسرور، وتقوية النفوس على المطالب النافعة"[(٢)].

مظاهر الطيرة:

الطيرة لها مظاهر متعددة، وألوان مختلفة في القديم وفي الحديث، فمن مظاهرها: زجر الطير، فإن ذهب يميناً استبشروا وأقدموا على ما عزموا على فعله، وإن ذهب شمالاً تشاءموا وأحجموا عن ذلك، ومنها ما يكون برؤية بعض الطيور كالغراب والصُّرَد [(٣)]، والجرادة والبُومة [(٤)]، ومنها التطير بأول ما يقع

==

أبوداود ٤/٢٣٥ ح(٣٩١٩)، وصححه النووي في رياض الصالحين ص(٥٣٧)، ومحمد بن عبدالوهاب في كتاب التوحيد انظر فتح المجيد ص(٢٥٠).

(١) أخرجه البخاري ١٠/٢٤٤ ح(٥٧٧٦)، ومسلم ٤/١٧٤٦ ح(٢٢٢٣).

(٢) القول السديد ص(١٠١)، وانظر مفتاح دار السعادة ص(٥٦٦).

(٣) الصُّرد: طائر ضخم الرأس والمنقار، له ريش عظيم، نصفه أبيض ونصفه أسود، النهاية ٣/٢١.

(٤) البومة: طائر يقع على الذكر والأنثى، ويسكن الخراب، ويضرب به المثل في الشؤم، مختار الصحاح ص(٢٨).

عليه البصر، ومنها التشاؤم بأصحاب العاهات والأمراض، كالأعرج، والأعور، والأعمى، ومنها ما يكون بأزمان معينة كشهر صفر وشوال، ومنها ما يكون بأماكن معنية كالمكان الذي تصيب الإنسان فيه المصيبة، ومنها ما يكون بأشخاص معينين، كالمرأة تتزوج الرجلين والثلاثة فيموتون عنها، ومنها ما يكون بالألوان كاللون الأسود، ومما يؤسف له أن بعض وسائل الإعلام الحديثة تروج لمثل هذه الخرافات، فتزود قراءها وتخبرهم بحظوظهم وما ينتظرهم في مستقبل حياتهم، وذلك من وقع تواريخ مواليدهم أو أشكال وجوههم [١].

(١) انظر لما سبق: الطير والطيرة في القرآن والسنة، للدكتورة سهام وادي ص(٦١) وما بعدها.

المطلب السابع: التبرك

التَبَرُّك: مصدر تَبَرَّكَ، وهو طلب حصول البركة [١]، وقد وردت مادة"برك"وما تصرف منها في القرآن الكريم أربعاً وثلاثين مرة، والمتأمل للآيات التي ذكرت فيها البركة يجد أن البركة في الأصل من الله – تعالى –، فهي تطلب منه وحده، وهو – سبحانه – يضعها فيمن شاء من خلقه [٢]، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومعنى تبارك: عظم وتعالى وكثرت بركته، ولا يوصف به إلا الله – تعالى –[٣]، وقال ابن القيم بعد أن ذكر أقوال السلف في معناها: "وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه – تبارك وتعالى –، وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان"[٤]، وقال: "تبارك"دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها".

الأمور الموصوفة بالبركة في القرآن الكريم :

ورد في القرآن الكريم وصف بعض الأمور بأنها مباركة، وعلى هذا يشرع

---

(١) البركة في اللغة: لها معنيان: الثبوت، والنماء والزيادة، والمراد بالبركة الشرعية: كثرة الخير وثبوته، انظر لسان العرب ٢٦٥/١، والقاموس المحيط ٣٩٩/٣، والمفردات ص(١١٩)، والتبرك أنواعه وأحكامه للدكتور ناصر الجديع ص(٣٩).

(٢) انظر كتاب هذه مفاهيمنا للشيخ صالح آل الشيخ ص(٢٠١).

(٣) انظر تفسير ابن عطية ٧٧/٧.

(٤) بدائع الفوائد ٣٣٤/٢.

التبرُّك بها، ومنها:

- **القرآن الكريم**، فقد وصفه الله - تعالى - بأنه مبارك في أربعة مواضع من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩].

قال الشنقيطي [(١)]: "أي كثير البركات والخيرات ؛ لأن فيه خبر الدنيا والآخرة"[(٢)].

فيشرع التبرك به قراءةً واستشفاءً وعلماً وعملاً.

- **الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم -**، فهم جميعاً أشخاص مباركون، قال تعالى في إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾[الصافات: ١١٣]، وقال في نوح - عليه السلام -: ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ

---

(١) هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، ولد بشنقيط وبها نشأ ثم رحل إلى المدينة واستقر بها، برع في فنون عديدة، مع ملازمة الزهد والورع، له مصنفات كثيرة، منها تفسيره المشهور: أضواء البيان، توفي في مكة عام ١٣٩٣هـ، انظر ترجمته في مقدمة تفسيره بقلم تلميذه محمد عطية سالم.

(٢) أضواء البيان ٦٣٩/٤.

مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود: ٤٨]، وقال عيسى - عليه السلام -: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١]، وأفضل الرسل نبينا محمد ﷺ فيشرع التبرك به بذاته وأفعاله وآثاره وسنته.

- **المساجد**، فهي من الأمكنة المباركة، وأفضلها المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، فيشرع التبرك بها، وذلك بالصلاة فيها والعبادة والذكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال القرطبي: "جعله الله مباركاً لتَضاعُف الخير فيه، فالبركة كثرة الخير"(١).

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١].

"والمراد بالبركة هنا: البركة الدنيوية، أي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم، وقيل البركة الدينية لأنه مقر الأنبياء والصالحين ومهبط الملائكة"(٢).

- **ليلة القدر**، فهي من الأزمنة المباركة؛ فيشرع التبرك بها بكثرة العبادة والدعاء والذكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[الدخان: ٣].

---

(١) تفسير القرطبي ٨٩/٤.

(٢) التبرك أنواعه وأحكامه ص(١٢٨).

قال القرطبي: "وصفها بالبركة لما يترل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب"[١].

أقسام التبرك:

التبرك قسمان: مشروع وممنوع.

القسم الأول: التبرك المشروع، وهو التبرك بما دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله – تعالى – قد جعل فيه البركة، سواء كان صفة أو شخصاً أو مكاناً أو أزماناً، وقد تقدم آنفاً ذكر عدد من الأمور التي نصَّ القرآن الكريم على أنها مباركة.

القسم الثاني: التبرك الممنوع، وهو ما لم يرد دليل على مشروعيته، فمن ذلك التبرك بذوات الصالحين بتقبيلهم والتسمح بهم، أو بآثارهم، وأما التبرك بمجالسة الصالحين المتقين المتبعين للسنة، وذلك بالانتفاع بعلمهم، والاقتداء بهم، ومحبتهم، فهذا جائز بل هو محمود مندوب.

ومن أنواع التبرك الممنوع التبرك ببعض الأمكنة أو البقاع، كقبر النبي ﷺ، وقبور الأولياء والصالحين، وبعض الجبال والأشجار الأحجار[٢]، وذلك بالصلاة عندها والتمسح بها، والعكوف فيها، وتقديم القربات لها.

ومن أنواع التبرك الممنوع التبرك ببعض الأزمنة، كمولد النبي ﷺ، وليلة

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/٨٤.

(٢) يستثنى من ذلك الحجر الأسود والركن اليماني، فيسن مسحهما وتقبيل الحجر الأسود اقتداءً بالنبي ﷺ كما هو معلوم.

الإسراء والمعراج، وذكرى الهجرة، وغيرها [١].

الشرك في التبرك:

تقدم أن التبرك نوعان: مشروع وممنوع، فالممنوع منه هو شرك بالله تعالى، وهو على قسمين:

أحدهما: أن يرجو الإنسان ممن يتبرك به نفعاً على وجه الاستقلال، أو يعبده ملتمساً منه البركة، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا هو شرك قوم نوح الذين عكفوا عند صور صالحيهم راجين من ذلك البركة، فآل بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله كما تقدم [٢]، وهو أيضاً شرك العرب باللاّت والعزّى ومناة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

وهذه الثلاثة: اللات، والعزى، ومناة أصنام كانت العرب تعبدها في الجاهلية، وخصها الله - تعالى - بالذكر لأنها أعظم أصنامهم وأكبرها في ذلك الوقت، فصارت الفتنة بها أشد [٣].

فأما"اللاَّت"[٤] فكانت صخرةً بيضاء منقوشة وعليها بيت، وكانت

---

(١) انظر لما سبق التبرك أنواعه وأحكامه للجديع ص(٣١٥) وما بعدها، والتبرك المشروع والممنوع للدكتور علي العلياني ص(٥١) وما بعدها.

(٢) انظر ص(٢٨).

(٣) انظر حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص(٩٠).

(٤) وفيها قراءتان: تخفيف التاء، وهي قراءة الجمهور، وتشديدها، وهي قراءة رُويس عن يعقوب، انظر النشر ١٧٩/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ١٦٠/٨.

بالطائف، لها أستار وسَدَنَة، وحولها فناء، معظَّم عند أهل الطائف [١].

وقال ابن عباس: "كان اللاّت رجلاً يلتُّ السويق[٢] للحاج"أخرجه البخاري[٣]، زاد ابن جرير: "فمات فعكفوا على قبره"[٤].

وأما"العُزَّى"فكانت شجرة بين مكة والطائف عليها بناء وأستار، وكانت قريش تعظمها [٥].

وأما"مَنَاة"فكانت صنماً بين مكة والمدينة يعظمها الأوس والخزرج وخزاعة ويهلون منها للحج [٦]، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر بهدم هذه الأصنام الثلاثة وسائر الأصنام.

ومعنى الآية: أخبروني عن هذه الآلهة الباطلة هل نفعت أو ضرت حتى تعبد وتُشرك بالله – تعالى –؟ [٧].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: "عُبَّاد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون البركة فيها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كاللاّت، وبالأشجار والأحجار: العزى ومناة من ضمن فعل أولئك المشركين

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٧١/٤.

(٢) أي يخلطه، والسويق طعام يصنع من الحنطة أو الشعير، انظر المعجم الوسيط ٤٦٥/١ و٨١٤/٢.

(٣) صحيح البخاري ٦١١/٨ ح(٤٨٥٩).

(٤) تفسير ابن جرير ٥٢٠/١١.

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢٧١/٤.

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٢٧١/٤.

(٧) انظر القرطبي ٦٧/١٧.

مع تلك الأوثان، فمن فعل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عباد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك، فالله المستعان"[١].

ومما يدل على أن التبرك الممنوع شرك بالله – تعالى – حديث أبي واقد الليثي[٢] – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط [٣]، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: ((سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبنّ سُنّة من كان قبلكم))، أخرجه أحمد والترمذي [٤]، فقد أنكر النبي ﷺ في هذا الحديث على الصحابة الذين طلبوا منه أن يجعل لهم ذات أنواط، وشبّه فعلهم بفعل قوم موسى – عليه السلام – الذين قالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾، وهذا يدل على أن التبرك نوع من العبادة[٥].

---

(١) فتح المجيد ص(١٠٣).

(٢) هو الحارث بن مالك، وقيل: الحارث بن عوف، وقيل: عوف بن الحارث الليثي الكناني، صحابي جليل، شهد فتح مكة، وشهد اليرموك، مات بمكة عام ٦٨هـ، انظر الإصابة ٢١٢/٧، والتقريب (٦٨٢).

(٣) اسم لشجرة بعينها كان المشركون ينوطون بها سلاحهم أي: يعلقونه، انظر النهاية ١٢٨/٥.

(٤) أخرجه أحمد ٢١٨/٥، والترمذي ٤١٣/٤ ح(٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح.

(٥) انظر الشرك الأصغر للسليم ص(٢٣٤).

قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قال – رحمه الله –: "يخبر – تعالى – عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن يتره عنه من الشريك والمثيل"[(١)]،"وأي جهل أعظم من جهل الإنسان بربه وخالقه، وأراد أن يسوي به غيره ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً"؟ [(٢)].

والثاني[(٣)]: أن لا يرجو المتبرِّك النفع استقلالاً من المتبرَّك به، ولا يعبده، ولكن يرجو الخير وكثرة الأجر بمجاورته والتسمح به، والتعبد عنده، فهذا شرك أصغر، لأنه وسيلة إلى الشرك الأكبر [(٤)].

مظاهر الشرك في التبرك:

ولقد انتشر هذا النوع من الشرك عند كثير من المسلمين، فأصبحوا لا همَّ لهم إلا التمسح بشيوخ الضلال وتقبيلهم والتقرب منهم، وقصد القبور

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٣ بتصرف يسير.
(٢) تفسير السعدي ٣/٨٥.
(٣) أي القسم الثاني من أقسام التبرك الشركي.
(٤) انظر الشرك الأصغر للسليم ص(٢٣٥).

والأحجار والآثار للصلاة عندها والدعاء والطواف، وإحياء المناسبات الإسلامية وإقامة الاحتفالات لها، وتخصيصها بالدعاء والعبادة والذكر، وغير ذلك ممـــا لم يذكر كثير، وهذا من تسويل الشيطان وتزيينه ووسوسته لكي يصرف الناس عن عبادة الله وحده ويجرهم إلى الشرك، كما فعل مع أسلافهم من قبل.